سقوط مدينة بسطة Baza (٨٩٥هـ/١٤٨٩م)

وأثره على الأندلس

الأستاذ الدكتور
حسين جبار العلياوي
الأستاذ الدكتور
جاسم ياسين الدرويش
جامعة البصرة ـ كلية التربية للعلوم الإنسانية
phjassim2@yahoo.com

The fall of the city of Baza (895 AH/1489 CE) and its impact on Andalusia

prof. Dr.
Hussein Jabbar Al Uliawi
Prof. Dr.
Jassim Yasin Al Darweesh
University of Basrah , College of Education for Human Scienes

الملخص:-

حكم المسلمون مدينة بسطة Baza للمدة (٩٢-٨٩٥ هـ/٧١٠-١٤٨٩م) أي حوالي ثمانية قرون، وبسبب موقعها في المنطقة الجنوبية الشرقية من الأندلس بقيت بعيدة عن الأحداث الكبرى التي شهدتها الأندلس في صراعها مع النصارى لقرون عدة، إلا أنه خلال المرحلة الأخيرة من دولة بني الأحمر في غرناطة (٨٦٨ - ٨٩٧هـ/١٤٦٣-١٤٩١ م) تمكن النصارى من إخضاع معظم مناطق الأندلس وغدت مدينة بسطة مدينة ثغرية تلامس حدود مملكة قشتالة، وبسبب أهمية المدينة فقد أدرك النصارى أن مفتاح غرناطة يكمن في احتلالهم مدينة بسطة، لذا لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إلا بعد أن حشدوا لها قوات صليبية هبت إليهم من مختلف أنحاء أوربا، وحصار لها دام أكثر من ستة أشهر.

كما أن معركة بسطة كانت آخر المعارك الكبرى التي خاضها النصارى ضد المسلمين في الأندلس، فقد تمكنوا بعدها من إخضاع معظم المناطق الأخرى بسهولة حتى سقوط غرناطة الأخير في ربيع الأول سنة ٨٩٧هـ/كانون الثاني ١٤٩١م.

الكلمات المفتاحية: مدينة بسطة، غرناطة، فرناندو، إيزابيلا، الأندلس.

Abstract:-

The Muslims ruled the city of Baza between (92-895 AH/710-1489 CE), about eight centuries, and because of its location in the southeastern region of Andalusia it remained far from the major events in Andalusia and the conflict with the Christians for several centuries, except that during the last stage From the state of Bani al-Ahmar in Granada (868 - 897 AH/1463-1491 AD) the Christians were able to subjugate most of Andalusia and the city of Baza became a border city that touched the borders of the Kingdom of Castile, and because of the importance of the city, Christians realized that the key to Granada lies in their occupation of Baza, so They could not seize it until after they mobilized Crusader forces that had come to them from various parts Europe, and the siege has lasted more than six months.

The Baza Battle was the last of the major battles that the Christians fought against the Muslims in Andalusia. After that, they were able to subdue most other areas easily until the last fall of Granada in Rabi` al-Awwal 897 AH/January 1491 AD.

Keywords: The city of Baza, Granada, Fernando, Isabella, Andalusia.

المقدمة:

تعد دراسة المدن الأندلسية من المندوحات المهمة بسبب ما تتمتع به من خصوصيات في المجالات السياسية والاجتماعية فضلاً عن الجغرافية، وقد لعبت الأخيرة دوراً بارزاً في التأثير على الحياة السياسية والاجتماعية لتلك المدن لتنوعها وكثيرة القلاع والحصون والجبال بحيث نادراً ما نرى مدينة إلا وهي قائمة على قلعة أو حصن أو جبل أو قريبة منه، ولهذا فإن تاريخ أي مدينة هو عبارة قصة فيها ما يميزها عن غيرها، ومن هذا المنطلق جاءت دراستنا لسلسلة المدن الأندلسية.

وفي هذه الدراسة جاء اختيارنا لمدينة بسطة الأندلسية، ومن أهم ما تميزت به هذه المدينة هي مواكبتها للتاريخ الإسلامي الأندلسي منذ الفتح حتى السقوط وكان سقوطها إيذاناً بسقوط ما تبقى من الأندلس كلها بيد النصارى، وتطلبت مادة الدراسة تقسيمها إلى عدة مباحث، كان الأول لبيان موقع مدينة بسطة وأعمالها وفتح المسلمين لها، وركز المبحث الثاني على الصراع السياسي في دولة بني الأحمر بعد سنة ٨٦٨ هـ/١٤٦٣ م وأثره في التمهيد لسقوط بسطة، فيما جاء المبحث الثالث للحديث عن الهجوم النصراني الأول على مدينة بسطة وسقوط حصن طشكر سنة ٨٩٣ هـ/١٤٨٧ م، وتناول المبحث الرابع الهجوم الثاني على مدينة بسطة وحصارها سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٨ م، فيما تناول المبحث الخامس محاولات استغاثة أهالي بسطة لإنقاذهم من أيدي النصارى، وخصّ المبحث السادس للحديث عن سقوط مدينة بسطة واستسلامها للنصارى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م، وبينا في المبحث السابع نتائج سقوط مدينة بسطة على الوجود الإسلامي في الأندلس.

المبحث الأول

موقع مدينة بسطة وفتح المسلمين لها

تقع مدينة بسطة في الجزء الأوسط من الأندلس الذي قاعدته طليطلة Toledo، وقد أشار البكري إلى أنها واحدة من عشرين مدينة في هذا الجزء[١]، كما ذكر ذلك مؤلف مجهول بقوله: ((فأما المدن المتوسطة مثل شريش[٢] وقرمونة[٣] وبسطة وطليطلة[٤] وأبدة[٥] وبياسة[٦] وباجة[٧]...، فما يحوي عددها الحصر))[٨].

تعد مدينة بسطة من أعمال كورة جيان Jean، وقد أشار إلى ذلك ابن غالب عند حديثه عن جيان بقوله: ((ولها مدينة بسطة،...))[٩]، إذ أن المسافة بينهما ثلاث مراحل[١٠][١١]، كما تقع بالقرب من قسطلونةCastellon[١٢][١٣]، وأيضاً تقع بالقرب من بسطة مدينة وادي آشGuadix[١٤][١٥]، إذ أن المسافة بين المدينتين ثلاثون ميلاً[١٦][١٧]، وتحدث الإدريسي عن الطريق الذي يربط مدينة وادي آش بمدينة بسطة بقوله: ((...، ومدينة وادي آش رصيف يجتمع به طرق كثيرة فمن أراد منها مدينة بسطة خرج من وادي آش إلى جبل عاصم ثم إلى قرية يورا إلى مدينة بسطة وبينهما ثلاثون ميلاً...))[١٨]، كما تبعد بسطة عن مدينة لورقةLorca[١٩] ثمانين كيلومتراً[٢٠]، وهي أيضاً وسطاً بين مدينتي مرسيةMurcia[٢١] وغرناطةGranada[٢٢][٢٣]، ولما كانت المسافة بين مدينة وادي آش وغرناطة ثمانية أميال[٢٤]، فعلى هذا فإن المسافة بين مدينة بسطة وغرناطة ٨٣ ميلاً، أي ما يعادل حوالي ١٦٦كم.

وقد وضع البكري مدينة بسطة في الجزء الرابع، إذ قسم الأندلس إلى ست ولايات استناداً إلى التقسيم الروماني القديم لشبه جزيرة أيبيريا Iberia، والجزء الرابع يشتمل على عشرين مدينة قاعدتها مدينة طليطلة[٢٥].

فيما ذهب الإدريسي إلى أن مدينة بسطة تقع ضمن إقليم البيرةElvira[٢٦]، وذكر أن فيه من المدن أغرناطة ووادي آش والمنكبAlemunecar[٢٧] وحصون وقرى كثيرة وفيه مدينة بسطة وحصن طشكرHuescar الموصوف بالمنعة[٢٨].

ويبدو أن قرب مدينة بسطة من البيرة جعل بعض المصادر تصنفها ضمنها بدلاً من جيان، ومما يدلل على ذلك ما ذكره ابن الخراط بقوله: ((بسطة من كورة جيان في آخر الكورة مجاورة البيرة من جهة الشرق)) [٢٩].

أما تسميتها فيبدو أنها مشتقة من طبيعتها، فيقال أرض بسطة بالفتح أي مستوية، وأرض بسيطة اسم لها [٣٠]، وأرض بسيطة أي واسعة عريضة [٣١]، وقد عبر ابن الخطيب عن ذلك بقوله: ((بسطة بلد خصيب، ومدينة لها من اسمها نصيب)) [٣٢]، ويفهم من قول ابن الخطيب أعلاه أن بسطة اسم يطلق على المدينة والبلد، وهذا البلد الذي يحيط بالمدينة عبارة عن حدائق غناء مترامية الأطراف تصل إلى جبال غرناطة[٣٣]، وبسبب اتساعها

أضيفت لها العديد من الأعمال منها:

١- أشكون، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة[٣٤].

٢- برشانة، Purchena [٣٥] والنسبة إليها برشاني[٣٦]، قال ابن سعيد: من حصون بسطة على نهر المنصورة المشهور بالحسن، لما عليه من الضياع والحصون والجنان[٣٧]، وذكرها ابن الخطيب عند حديثه عن نواحي بسطة وزيارته لها سنة ٧٤٨هـ/١٣٤٧م فقال: ((وطالعنا برشانة حرسها الله، فحيتنا ببواكر الورْد، ونضت عَنَّا برود الْبرد، وشملتنا بالهواء المعتدل، وأظلتنا برواقها المنسدل،...))[٣٨].

٣- بَشر، ذكر شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة، وهو حصن منيع[٣٩].

٤- بلس السكة، ذكرها ابن الابار، وقال: ينسب إليها بعض أهل العلم[٤٠]، وفرّق بينها وبين بلس لورقة[٤١].

٥- تاجلة[٤٢]، قال ابن سعيد: حصن من عمل بسطة على وادي المنصورة[٤٣].

٦- شرغلي، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة[٤٤].

٧- شوسر[٤٥]، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة[٤٦].

٨- طشكر[٤٧]، وهو حصن منيع وصفه الإدريسي بالقول: ((حصن طشكر الذي فاق جميع حصون الأندلس منعة وعلواً ورفعة وطيب تربة وهواء، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعان وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلاً على طرق مثل شراك النعل ومدارج النمل، وبأعلاه الزرع والحصاد والمياه وإليه الانتهاء في الخصب وجودة الحصانة))[٤٨]، وقال عنه ياقوت: ((حصن حصين في كورة جيّان من أعمال الأندلس لا يرتقى إلا بالسلاليم))[٤٩]، كما تحدث الزهري عن حصن طشكر بقوله: ((...، وفيه أعاجيب وأعجب ما فيه الثقب الذي بالحافة الشرقية منه، وذلك أن هذا الثقب لا يبلغه أحد من أعلاه ولا من أسفله، فإذا هبت الريح الشرقية فيه خرج منه بخار أشد بياضاً من الثلج، وإذا هبت الريح الشرقية خرج منه بخار كلهيب النار أحمر، وإذا هبت الريح الجنوبية خرج منه بخا أصفر

كشعاع الشمس، وإذا هبت الريح الشمالية خرج منه بخار أزرق كاللازورد، وإذا سكنت الريح لم يخرج منه شيء، فهذا دأبه دائم الدهر))[٥٠]، وقد زار هذا الحصن المنيع ابن الخطيب ووصفه بقوله: ((نعم البسيط المديد، والرزق الجديد، والسعي العديد، والصيد القديد، تركب الجداول فحصها، ويأبى الكمال نقصها، ويلازم ظل الخصب شخصها، مسرح البهائم، ومعدن الرعي الدائم))[٥١].

٩- طيبالة[٥٢] قال ابن الابار: من عمل بسطة [٥٣].

١٠- قولية، وتلفظ أيضاً كولية، من عمل بسطة[٥٤]، وقال الحميري: ((من بسطة إلى قوليه وهي آخر حوز جيان وأول أحواز تدمير))[٥٥]، وقال المقري: إنه حصن من عمل بسطة[٥٦].

١٢- الكحل وهو جبل من عمل بسطة، قال عنه القزويني: ((وبناحية بسطة جبل يعرف بجبل الكحل، إذا كان أول الشهر برز من نفس الجبل كحل أسود، ولا يزال كذلك إلى منتصف الشهر، فإذا زاد على النصف نقص الكحل، ولا يزال يرجع إلى آخر الشهر))[٥٧]، وقال عنه الحميري: ((وبها - أي بسطة - جبل يعرف بجبل الكحل، لا يزال ينشر منه كحل أسود يزيد بزيادة القمر وينقص بنقصانه، لم يزل على ذلك من قديم الدهر))[٥٨]، أما شيخ الربوة فأسماه معدن الكحل إذ قال: ((وبها - أي بسطة - معدن الكحل الإثمد وهو يزيد مع زيادة القمر وينقص مع نقصانه))[٥٩].

١٢- مدرش، ذكرها شيخ الربوة وقال: إنها من أعمال بسطة[٦٠].

لم ترد في المصادر المتوفرة لدينا إشارة مباشرة عن كيفية فتح المسلمين مدينة بسطة أو تاريخ ذلك، إلا أنه على ما يبدو أنها فتحت أثناء فتح المسلمين لمدينة جيان لقربها منها ومن توابعها، فعندما تمكن طارق بن زياد من هزيمة ملك القوط الغربيين لوذريق في معركة وادي لكة[٦١] Rio Cuadalete في شوال من سنة ٩٢هـ/٧١٠م اتجه إلى إشبيليةSevilla فتمكن من فتحها ثم اتجه إلى مدينة إستجة[٦٢] Ecija التي تجمع فيها قسم من الجيش القوطي، وبعد هزيمتهم قرر التقدم والزحف مباشرة إلى طليطلة عاصمة القوط الغربيين، وقبل أن يشرع أرسل فرقاً من جيشه لفتح بعض المناطق التي تجمع فيها القوط وهي: قرطبةCordoba[٦٣] والبيرة ومالقةMalaga[٦٤] وتدميرTudmir[٦٥].

أما بالنسبة إلى كورة جيان الواقعة إلى الشرق من قرطبة والتي يمر بها الطريق الروماني القديم[٦٦]، فقد سلكه طارق بن زياد إلى طليطلة، فذكر المقري أن طارق بن زياد بعد بعثه بعضاً من جيوشه إلى مالقة وغرناطة والبيرة ((سار هو في معظم الناس إلى كورة جيّان يريد طليطلة،...))[٦٧]، وهذا يدل على أن كورة جيان وتوابعها (ومنها مدينة بسطة) قد فتحت على يد طارق بن زياد وهو في سيره إلى مدينة طليطلة.

وعن تاريخ فتحها فيمكن القول إن ذلك كان في أواخر سنة ٩٢هـ/٧١٠م، لأن معركة وادي لكة التي انهزم فيها القوط كما قال المقري: ((كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوّال بعد تتمة ثمانية أيام،...))[٦٨]، وكان فتح قرطبة في شوال من السنة نفسها[٦٩]، ولما كان طارق في طليطلة أوائل سنة ٩٣هـ/٧١١م [٧٠]، فهذا يعني أن دخول جيان ومنها مدينة بسطة في حكم المسلمين كان في المدة بين شوال وذي الحجة من سنة ٩٢هـ/٧١٠م.

المبحث الثاني

الصراع السياسي في دولة بني الأحمر وأثره على مدينة بسطة

شهدت المرحلة الأخيرة من حياة مملكة غرناطة (٨٦٨ - ٨٩٧هـ/١٤٦٣-١٤٩١م) استمرار الصراع الأسري بين حكام بني الأحمر حتى صفت إلى السلطان أبي الحسن علي بن سعد بن الأحمر الذي طال حكمه (٨٦٨-٨٨٧ هـ/١٤٦٣-١٤٨٢ م) وقد وصفه مؤلف مجهول وهو معاصر له بالقول: ((...، وانقرضت أَعْلَام الْفِتْنَة وخمدت نارها ودانت لَهُ جَمِيع بِلَاد الأندلس وَلم يبْق لَهُ فِيهَا معاند وَهُوَ مَعَ ذَلِك يَغْزُو بِلَاد الرّوم الْمرة بعد الْمرة حَتَّى غزا غزوات كَثِيرَة وَأظْهر الْأَحْكَام وَنظر فِي مصَالح الْحُصُون ونمى الْجَيْش فهابته النَّصَارَى وصالحته براً وبحراً وَكثر الْخَيْر وانبسطت الأرزاق ورخصت الأسعار وانتشر الْأَمْن فِي جَمِيع بِلَاد الأندلس وشملتهم الْعَافِيَة فِي تِلْكَ الْمدَّة وَضربت سكَّة جَدِيدَة طيبَة))[٧١]، وأضاف: إلا أن السلطان بعد حادثة السيل الذي تعرضت له غرناطة سنة ٨٨٣هـ/١٤٧٨م[٧٢] ((اشْتغل باللذات والإنهماك فِي الشَّهَوَات وَاللَّهْو بِالنسَاء المطربات وركن إِلَى الرَّاحَة والغفلات وضيع الْجند وَأسْقط كثيرا من نجدة الفرسان وَثقل المغارم وَكثر الضرائب فِي الْبلدَان ومكس الْأَسْوَاق وَنهب الْأَمْوَال وشح بالعطاء إِلَى غير ذَلِك من الْأُمُور

الَّتِي لَا يثبت مَعهَا الْملك))[٧٣].

وفي المقابل شهدت العلاقات بين مملكتي قشتالة Castilla وأراغونAragon تطوراً مهماً كان له أسوأ الأثر على مستقبل غرناطة، وذلك بعد أن وقع الاختيار على فرناندو القشتالي ولد خوان الأول ملك قشتالة ملكاً لأراغون لأن أمّه ابنة بيدرو الأول وأخت الملك مرتين(٧٩٨-٨١٣ هـ/١٣٩٥-١٤١٠ م) فجلس على عرش أراغون سنة ٨١٥هـ/١٤١٢م، ثم في سنة ٨٧٤ هـ/١٤٦٩ م تزوجت إيزابيلا بنت خوان الثاني ملك قشتالة وأخت الملك هنري الرابع (٨٥٩-٨٧٩ هـ/١٤٥٤-١٤٧٤ م) من فرناندو بن خوان الثاني ملك أراغون (٨٦٣-٨٨٤ هـ/١٤٥٨-١٤٧٩ م)، وعندما توفي هنري الرابع بدون وريث للعرش توجت أخته إيزابيلا لعرش قشتالة، كما ورث فرناندو الأرغوني أباه عند وفاته، فكان ثمرة ذلك الزواج أن اتحدت المملكتان قشتالة وأراغون[٧٤]، ولُقبا بالملكين الكاثوليكيين[٧٥]، وبذلك اتحدت كلاً من قشتالة وأراغون لمواجهة المسلمين في الاندلس.

وبالمقابل حصل تطور خطير على الساحة السياسية في غرناطة ألا وهو الفرقة التي حدثت بين السلطان أبي الحسن وولديه أبي عبد الله محمد (الصغير) وأبي الحجاج يوسف، ويرجع سبب ذلك إلى أن السلطان كان قد تزوج من ابنة عمّه عائشة الحرة[٧٦] فأولدها ولديه أعلاه، ثم تزوج من فتاة نصرانية تدعى ثريا[٧٧] وأولدها ابنيه سعد ونصر فأوغرت صدره على ولديه من عائشة فاعتقلهما مع أمّهما إلا أنهما تمكنا من الفرار والتغلب على السلطة في غرناطة وتربع أبو عبد الله الصغير على عرش غرناطة أواخر سنة ٨٨٧هـ/١٤٨٢م وفرّ السلطان أبو الحسن إلى مدينة بسطة حيث استقبل هناك من قبل أهالي المدينة، ثم تمكن من تجميع أنصاره مكوناً منهم قوة بلغت خمسمائة شخص زحف بها نحو مدينة غرناطة حيث ابنه أبو عبد الله الصغير، وتمكن مع رجاله من تسلق أسوار مدينة غرناطة وخاض معركة عنيفة مع أنصار ابنه قتل فيها الكثير من أتباعه مما اضطره إلى التراجع والهرب إلى مالقة[٧٨] حيث أخوه أبو عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل[٧٩].

وقد اغتنم النصارى ذلك الانقسام الذي تزامن مع انقضاء مدة الهدنة[٨٠] التي عقدها السلطان مع قشتالة بمهاجمة أراضي مملكة غرناطة فاستولوا على مدينة الحمة [٨١] (الحامة)Alhama ولوشةLoja[٨٢] ، كما هاجموا مالقة إلا أن حاكمها أبو عبد الله الزغل

تمكن من ردهم سنة ٨٨٨هـ/١٤٨٣ م[٨٣]، عندها اعتزم أبو عبد الله الصغير أن يحذو حذو عمّه في الجهاد فخرج نحو أحواز قرطبة وحقق بعض الانتصارات إلا أن النصارى تمكنوا من أسره في طريق عودته[٨٤] ورجع جيشه دون أميره فاستدعى أهل غرناطة أباه أبا الحسن ولكنه كان قد أعياه الهرم فتنازل لأخيه أبا عبد الله الزغل حاكم مالقة، إلا أن ملكا قشتالة أفرجا بعد ذلك عن أبي عبد الله الصغير بعد أن أخذا عليه المواثيق بتبعيته لهم مع جزية سنوية[٨٥].

وعندما أُطلق سراح أبا عبد الله الصغير كان عمّه أبو عبد الله الزغل يُحكم سيطرته على غرناطة ويطمع بالسيطرة على جميع ما تبقى من الأندلس لنفسه، فعمد الصغير إلى التوجه إلى شرق الأندلس ودخل حصن بلش Velez القريب من مدينة بسطة بمساعدة قوة من النصارى وأعلن نفسه ملكاً، وأخذ يبث دعوته، ويشيد بمزايا الصلح المعقود مع ملكي قشتالة، وأنه يضمن للمسلمين الاستقرار والسلم، وأنه يُطبق في سائر الأنحاء التي تدخل في طاعته[٨٦] ، وقد علّق مؤلف مجهول المعاصر للأحداث على ذلك بقوله: ((استولى العَدو على حصن صَالِحَة من حصون بلش ثمَّ إِن العَدو دمره الله سرح الْأَمِير أَبَا عبد الله مُحَمَّد بن عَليّ إِلَى بعض حصون الشرقية ووعده بِالصُّلْحِ إِن أطاعه الشّعب فَقَامَتْ بدعوته تِلْكَ الْحُصُون طَمَعاً بِالصُّلْحِ وبالبقاء فِي الْحُصُون))[٨٧].

وهكذا أصبح لغرناطة حاكمين من بني الأحمر استقر أبو عبد الله الصغير في المناطق الشرقية (بسطة وحصونها) فيما يحكم عمّه أبو الله الزغل غرناطة ومالقة والمريةAlmeria[٨٨]، وفيما كانت نار الفتنة قائمة بين الخصمين كانت جيوش قشتالة قد استولت على العديد من المدن والحصون وأخذت تُضيّق الخناق على غرناطة [٨٩].

وأشار مؤلف مجهول (وهو معاصر للأحداث) أن أبا عبد الله الصغير من مقره في حصن بلش القريب من بسطة أخذ يراسل بقية المناطق ويعدهم بالصلح مع النصارى (فَلم يقبل مِنْهُ أحد وَلم يقم بدعوته فَرد)[٩٠]، وبسبب موقفه الضعيف هذا بين الناس استعان بالنصارى إذ أمده الملك القشتالي فرناندوFernando بعدد من القوات النصارى وأخذوا بمهاجمة بعض المدن منها المرية وبسطة وهو ما زاد من حنق أهالي تلك المناطق له، وقد علق إيرفنغ موقف أبي عبد الله الصغير بقوله: ((لقد رضي بيدول[٩١] التعس بشرور ثلاث: أولها تدير شعبه، وثانيها العداء لعمّه، وثالثها تحالفه مع فرناندو الذي جلب عليه بعض النفع

والكثير من الضرر، والكل ينظر إليه كعدو لدينه وبلاده، فأغلقت كل المدن أبوابها بوجهه، وصار الناس يلعنونه، حتى القلة من الفرسان العرب الذين قاتلوا تحت علمه بدأوا يتركونه، وهو على كل حال لا يكافئهم أو يدعمهم لأنه لا يحتاجهم حاجته لفرسان النصارى، فصار من الصعب عليه أن يجد مكاناً في الأرض يغرس عليه علمه ليحارب منطلقاً منه))[٩٢].

وأمام هذا الموقف الحرج له وأن أهل تلك المناطق لم يقبلوا منه غادر المناطق الشرقية ودخل خلسة إلى حي البيازين من أحياء غرناطة وانضم إليه بعض أهلها فاشتعلت نار الفتنة بين أهل البيازين وأهل غرناطة[٩٣]، وعزم أبو عبد الله الزغل أن يدخل حي البيازين بالقوة ويقضي على ابن أخيه أبي عبد الله الصغير، وفي محرم من سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٦ م حشد جيشه بعد أن ندب إليه من أهل غرناطة وأهل بسطة ووادي آش وما حولها من الحصون فجاءت إليه الحشود وأطبق الزغل الحصار على حي البيازين، وقد علّق مؤلف مجهول على ذلك بقوله: ((فلمَّا كَانَ اليوم السَّابع وَالعشْرُونَ من محرم عَام اثْنَيْنِ وَتسْعين عزم أَمِير غرناطة أَن يدْخل ربض البيازين عنْوَة بِالسَّيْف، فندب أهل غرناطة وَغَيرهم من أحوازها، وَقَالَ لَهُم: إِن هَؤُلَاء الْقَوْم قد حلّت دِمَاؤُهُمْ وَأَمْوَالهمْ لنصرتهم بالنصارى فَمَا لَهُم إِلَّا السَّيْف، وَندب أهل بسطة وَأهل وَادي آش وَمن حولهَا وَأمرهمْ بالهبوط على طَرِيق الفرغ وَالدُّخُول على بَاب فج اللبوة فِي ذَلِك الْيَوْم وَفتح أهل غرناطة بَاب الْحَدِيد وَبَاب أنيدر وَبَاب قشتر ونقبة بَاب البنود وَبَاب البنود ونقبة ربض الْبَيْضَاء وَبَاب الدفاف فَخرجت عَلَيْهِ طَائِفَة وطلعت على الْوَادي فَدخلت بَاب الشميس وَدخلت كل طَائِفَة على جِهَتهَا وَذَلِكَ كُله فِي سَاعَة وَاحِدَة، فلطف الله تَعَالَى بِأَهْل البيازين فَخرج لكل جِهَة من هَذِه الْجِهَات طَائِفَة مِنْهُم فدفعوهم وقاتلوهم وردوهم على أَعْقَابهم منهزمين فَدَخَلُوا بلدهم وسدوا أَبْوَابهم وبنوا نقبهم))[٩٤].

وأشار إيرفنغ[٩٥] أن أبا عبد الله الصغير عندما أدرك أنه لا يقدر على مواجهة قوات عمّه أبي عبد الله الزغل سارع إلى الطلب من الملك القشتالي فرناندو بالمساعدة فأمده الأخير فوراً بقوة بقيادة فرنان الفيريز دي سوتومري مما قوى موقفه[٩٦].

وفي هذا الأثناء استغل النصارى الاقتتال الداخلي، وفي محاولة لتخفيف الضغط أيضاً على حليفهم أبي عبد الله الصغير، زحفوا نحو بلش مالقة في ربيع الثاني من سنة

٨٩٢هـ/١٤٨٧ م، وأدرك أبو عبد الله الزغل أهمية بلش مالقة بالنسبة لمالقة نفسها فقسم قواته بعضها لمواجهة أبي عبد الله الصغير في حي البيازين، وزحف هو لمواجهة النصارى وإنقاذ مالقة بعد أن جاءته تعزيزات من مدينة بسطة ووادي آش والمرية[٩٧]، إلا أنه لم يستطع إنقاذها فارتد نحو غرناطة ، وخلال غيابه تمكن أبو عبد الله الصغير من دخول غرناطة وتنصيب نفسه مكان عمّه مما اضطر الزغل إلى التوجه إلى وادي آش والتحصن بها مع قواته[٩٨]، وبذلك انقلب الوضع فانقسمت غرناطة بين حاكمين أحدهما أبو عبد الله الصغير في مدينة غرناطة وما يجاورها، ووادي آش وأعمالها بيد أبي عبد الله الزغل[٩٩]، أما مدينة بسطة وأعمالها فلعلها دانت بالطاعة لأبي عبد الله الزغل لقربه منها أولاً، وكونهم ساعدوه ضد أبي عبد الله الصغير في نزاعه معه في حي البيازين، وبذلك تحقق ما كان يبتغيه ملكا قشتالة من تمزيق البقية من دولة الإسلام بالأندلس، تمهيداً للقضاء عليها[١٠٠].

المبحث الثالث

الهجوم الأول على بسطة وسقوط حصن طشكر سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م

كان أولى نتائج ذلك الانقسام هو هجوم الجيش القشتالي على مالقة والاستيلاء عليها سنة ٨٩٢هـ/١٤٨٦م[١٠١] وذلك بهدف قطع الإمدادات بالكامل عن مسلمي غرناطة من المغرب والتفرغ للاستيلاء على بقية المدن والحصون[١٠٢].

في الوقت الذي كان أبو عبد الله الصغير في غرناطة وقد اعترف بتبعية ملك قشتالة كان عمّه أبو عبد الله الزغل يسيطر على مساحات واسعة تشمل مدينة بسطة ووادي آش والمرية وهو يرفض بشدة هذه التبعية، وقد أشار إيرنيغ إلى ذلك بقوله: ((ورغم أن الزغل لم يكن في هذه الفترة جالساً في قصر الحمراء، إلا أنه كان يحكم منطقة أوسع من منطقة حكم ابن أخيه، إذ تمتد حدوده من حدود جين (جيان) على امتداد موريسيا (مرسية) إلى البحر المتوسط، لتصل إلى مركز المملكة، وعلى الجبهة الشمالية الشرقية لديه مدينتا بازا (بسطة) وغواديكس (وادي آش) المتوضعتان في قلب المنطقة الخصبة... هذا هو القسم الغني الوعر الذي ظل موالياً للمحارب الكبير مولاي الزغل، خاصة وأن المعاقل الطبيعية لهذا القسم قد حمته من الغزو والتدمير لهذه الحرب الحالية، ولذلك هيأ الزغل كل المواقع القتالية في هذه المنطقة لحرب طويلة وشرسة))[١٠٣].

وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر آغابيدا أبا عبد الله الزغل بقوله: ((أنه بينما كان الملك فرنانود يتواضع أما الصليب، ويكرس كل وقته للصلاة كي يدمر الرب عدوه، كان هذا الوثني الشرس الزغل يعتمد على قوة وبأس ساعده المادي وسيفه الحديدي، مطلقاً غضبه الشيطاني لتتبع النصارى))[١٠٤]، وعليه فقد قام أبو عبد الله الزغل بعدة هجمات ناجحة على المناطق الحدودية مع قشتالة لدفعهم عن مناطق حكمه في بسطة ووادي آش، ومن أهم تلك الهجمات هو هجومه على حصن كولار[١٠٥] وتمكن من اقتحام المناطق المحيطة به والوصول إلى القلعة المحصنة التي التجأ إليها قائد الحصن حيث ضرب عليها الحصار وتكمن المدافعون عنها من إيقاف تقدم قوات الزغل في معركة دامت خمسة أيام وكان النصارى الاستسلام لولا وصول إمدادات لهم مكنتهم من الانسحاب فدخل أبو عبد الله الزغل بقواته إلى المدينة وقد وجدها خالية فأحرقها ثم انسحب إلى معقله في وادي آش، وقد علق إيرفنغ على ذلك بقوله: ((فلغم العرب السور الخارجي وأحد أبراج الحصن، واستطاعوا الوصول إلى البلاد الخارجي للقصر، لكن السيد اعتصم في البرج ليصب على المهاجمين المعادن المنصهرة والحجارة والسهام وكل ما لديه من قذائف، مما دفع العرب إلى التراجع إلى خارج البلاط، ليعودوا إلى الهجوم بقوات إضافية، في معركة ظلت بين أخذ ورد مدة خمسة أيام، وكاد النصارى أن يستسلموا لولا أن قوّى سيدهم من معنوياتهم، وحذرهم من أنهم سيلقون حتفهم صبراً لو استسلموا على يد الزغل إلى أن وصلتهم نجدة قوية بقيادة بترو كاريرو لتنقذهم من هذا المصير التعس، حيث توقف الزغل عن هجومه، ولكنه أحرق المدينة من خيبة أمله، وعاد إلى معقله القوي في غواديكس))[١٠٦].

وهكذا تمكن أبو عبد الله الزغل أن يزيح خطر النصارى مؤقتاً عن حدوده معتمداً على جنده من مدينتي وادي آش وبسطة، وقد رأى فيه أهالي المدينتين الأمل الوحيد الذي ينقذهم ويطيل لبعض الوقت إقامتهم في وطنهم، وغدا الزغل عندهم رجل الساعة بعد أن خذلهم أبو عبد الله الصغير بتواطئه مع النصارى، وقد وصف المؤرخ النصراني حالة الفزع التي أوقعها أبو عبد الله الزغل في نفوس سكان حدود مملكة قشتالة بقوله: ((لقد كان هذا طوفاناً من الأحداث القوية والعظيمة في هذه المملكة القشتالية الأراغونية الممتدة، كما لو أن أبواب السماء قد فتحت ثانية لطوفان ثانٍ يجتاح الأرض، يهدر ويعصف ويمزق كل الجبال، ويزحف على الوديان الوديعة، والأنهار الخصبة، ليدمر البيوت حولها، ويحرق طواحين

الغذاء بعنف اقتلاعه، فالرعاة يرون قطعانهم تؤخذ منهم ومن مراعيها، لا خيار لهم سوى الفرار بأرواحهم إلى الأبراج والمعاقل العالية، فقد صار هؤلاء الخاضعون للنصرانية كالبحر المزمجر الذي ملأ حتى سهوب إشبيلية الشقراء بالذعر))[١٠٧].

وقد حاول المؤرخ النصراني تعليل سبب هزيمتهم على يد الزغل هو غضب الطبيعة على الدماء التي أراقها الزغل بقوله: ((ظهرت الأعاصير الطبيعية في السماء فوق هذه البلاد، مصحوبة بالزلازل التي كانت تهز المدن، والأبراج من أسسها، إلى حد أن بعض السفن التي كانت راسية في الموانيء تحطمت أو ابتلعها الموج أو ألقيت إلى الشاطيء محطمة مهشمة أو متطايرة، مما أشاع رعباً إضافياً عظيماً، ولم تهدأ تلك العواصف قبل أن تترك كل أصناف الخراب في البلاد، براً وبحراً،...، إن بعض ذوي القلوب التي لم يرسخ فيها الإيمان قد ظنوا أن هذا من أحداث الطبيعة، وربطوها بما حدث أو يمكن أن يحدث في أماكن أخرى، على أساس أنها جزء من الطقس، ولكنها في الواقع نتيجة الدماء البريئة التي غمس فيها الزغل يديه مع جماعته الغزاة من المسلمين))[١٠٨].

ويبدو أن هناك نوع من التهويل الإعلامي حاول مؤرخ البلاط القشتالي أنطونيو آغابيدا إشاعته لحشد المزيد من الدعم لملكه عن طريق تصوير حاكم بسطة ووادي آش والمرية أبو عبد الله الزغل بالرجل القوي الذي يمتلك من أدوات البطش ما يمكنه استعادة أمجاد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية لو تُرك في معقله القوي المحصن، ولكن الواقع لا يؤيد ذلك، فعلى الرغم من أن أبا عبد الله الزغل يتميز بقوة العزم والشجاعة إلا أن الظروف المحيطة به كانت صعبة، فهناك ابن أخيه في غرناطة يتربص به مدعوماً بفرقة من الجيش النصراني لاستخلاص مدينتي وادي آش وبسطة منه وهو لا يأمن الانقضاض عليه في أية لحظة، كما أن أهالي المناطق أصيبوا بالذعر والهلع لما حلّ بدولتهم من الضعف والانقسام والاقتتال فيما بين أبناء الأسرة الحاكمة، وبسبب ذلك - كما سنرى - فإن القوات القشتالية اجتاحت عدد من الحصون الشمالية الشرقية لمدينة بسطة بدون مقاومة.

ومما يرجح ما ذهبنا إليه أن الملكان الكاثوليكيان دعوا إلى حملة صليبية كبرى للقضاء على مملكة غرناطة وطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية، وكانت هذه الدعوة قد وجهت منذ عام ٨٩١هـ/١٤٨٦م حيث تجمعت في قرطبة قوات من فرنسا وانكلترا وألمانية وبقية

مناطق أوربا وجرى لتلك القوات استعراض كبير حضره إضافة إلى الملكين فرناندو وإزابيلا قادة من تلك المناطق، وقد وصف المؤرخ النصراني المعاصر ذلك التجمع من الجيوش بقوله: ((إنه كان مشهداً رائعاً للقضاء على هؤلاء الكفرة على يد من خرج من قرطبة من أكثر فرسان البلاد ورعاً وتصميماً وأباءً، وهؤلاء الفرسان يبدون من بعيد كما لو أنهم يسبحون على بحر من أعلام الصليب باتجاه الهلال،...، من المجد والنصر حمل علم الإيمان ليلعب في كل مكان، مما يعكس بأن هذا الجيش ليس جيشاً أرضياً، يهدف إلى تحقيق نفع مادي من طموح أو ثأر بل جيشاً مسيحياً حقيقياً يهدف إلى انتزاع بذرة الشر المحمدي من الأرض بحملة صليبية، لكي تعم سيطرة الكنيسة وحدها على كل العالم))[١٠٩]، بهذه الروح الصليبية تمكن ملكا قشتالة من حشد التأييد وجمع المال اللازم لاجتياح مدن بسطة ووادي آش والمرية وغيرها من الأراضي التي كانت تحت زعامة أبي عبد الله الزغل.

وهنا جاء قرار الملكي القشتالي بالهجوم على مدينة بسطة، لأنها كانت من الأعمال التابعة لأبي عبد الله الزغل للقضاء على سلطانه لما كان يخشاه من عزمة وشجاعته وشدة بأسه[١١٠]، وابتدأ أولاً بواحد من أهم حصونها وهو حصن أشكر (طشكر) الذي وُصف بأنه ((فاق جميع حصون الأندلس منعة وعلواً ورفعة وطيب تربة وهواء، وليس لأحد موضع يصعد منه إلى هذا الحصن إلا موضعان وبين الموضع والموضع اثنا عشر ميلاً على طرق مثل شراك النعل ومدارج النمل))[١١١]، ووصفه ياقوت بالقول إنه ((حصن حصين في كورة جيّان من أعمال الأندلس لا يرتقى إلا بالسلاليم))[١١٢]، ولعل مناعته كانت واحداً من أسباب تأجيل اقتحامه من قبل النصارى حتى إرهاق أهله وإضعاف معنوياتهم وهو ما حدث فعلاً، جدير بالذكر هنا أن مدينة بسطة وحصونها كانت داخلة في صلح مع ملك قشتالة أبرمه معه السلطان أبو عبد الله الصغير بعد إطلاقه من الأسر وأن أمده لم ينته بعد، وكان عليه أن ينتظر حتى ينتهي أمد الصلح، ولكنه يفعل ذلك ونقض عهده[١١٣].

فبعد أن أطبقت قوات قشتالة على غرناطة من كل جانب أيقن أهالي الحصن أنهم في جيب بعيد لا مخرج منه إلا بالاستسلام وهو ما حدث، ففي ربيع من سنة ٨٩٣هـ/١٤٨٧م زحف فرناندو الثاني Ferdinand II (٨٨٤-٩٢٢هـ/١٤٧٩-١٥١٦م) على أطراف سلطنة غرناطة الشمالية الشرقية ناقضاً للصلح الذي كان بينهما فاستولى على أهم حصونها وهو

حصن أشكر (طشكر) ويسميه إيرفنغ (قصار)[١١٤]، وقد أشار مؤلف مجهول إلى ذلك بقوله: ((وَفِي سنة ثَلَاث وَتِسْعين وثمان مئة خرج العَدو نَحْو حصون الشرقية وَكَانَت فِي صلحه فاستولى على تِلْكَ الْحُصُون كلهَا غدراً ومكراً من غير قتال وَلَا حِصَار وَلَا تَعب وَصَارَت جَمِيع حصون الشرقية فِي قَبضته وَتَحْت إيالته ثمَّ رَجَعَ إِلَى بِلَاده من قشتالة))[١١٥]، كما أشار المقري إلى مهاجمة ملك قشتالة لحصون المنطقة الشرقية ونكثه العهد الأول ثم عقد صلحاً آخر معهم بقوله: ((وفي عام ثلاثة وتسعين وثمانمائة خرج العدو الكافر إلى الشرقية وبلش التي كانت في الصلح، فاستولى عليها، واحتجوا بالصلح، فلم يلتفت إليهم، وأخذ تلك البلاد كلها صلحاً، ثم رجع لبلاده))[١١٦].

فيما أشار إيرفنغ إلى أن الملك القشتالي أدرك أنه لا يمكنه التقدم إلى مدينة بسطة إلا بعد أن يؤمن عدداً من القلاع والحصون المحيطة بها وإلا نقضت على جيشه من الخلف ولاسيما (قصار) التي تقدم نحوها ((فقاوم بعضها مقاومة باسلة وخاصة مدينة كقصار، التي هدم النصارى سورها بكل ما يملكون من أدوات ومكائن تهديم الحصون، لكن السيد الشجاع حبوس بن عبد العال[١١٧] كان يقاوم كل قوة بمثلها، وكل ماكنة أو مدفع بمثله، وقد شحن أبراجه بأشجع رجاله الذين كانوا يمطرون عدوهم بالقذائف من كل نوع، كما ربط مراجله التي تصب الزيوت والمعادن الحارقة على المهاجمين ببعضها بسلاسل حديدية وكان يقلبها دفعة واحدة على الأبراج الخشبية التي تحركها الدبابات الخشبية نحو أبراجه، ليحرقها بمن فيها دفعة واحدة، ولذلك صد الهجوم لعدة أيام، ولكن كثرة العدو كانت أغلب من شجاعة هذا السيد، الذي استطاع أن ينتزع شروطاً مشرفة لاستسلامه))[١١٨].

وأشار عنان إلى أنه يوجد في بلدية أشكر وثيقة عهد وقعها الملكان الكاثوليكيان لأهل حصن أشكر (طشكر) جاء فيها: يتعهد الملكان، بقبول أهل أشكر بين رعاياهما وتحت حمايتهما، وأن لا يؤخذ شيء من أمتعتهم أو يصيبهم أي مكروه، وألاّ يدفعوا من الضرائب إلا ما كانوا يؤدونه للملوكهم المسلمين، وألاّ يُرغموا على محاربة إخوانهم مسلمي غرناطة، وأن يسمح لهم باستبقاء زعمائهم وفقهائهم، وعوائدهم وشريعتهم، وأنه يحق لهم الإقامة في أي جزء من أراضي مملكة قشتالة، كما يحق لهم العبور إلى المغرب أحراراً ودون أي قيد، وأن يعامل السكان جميعاً ذكوراً أو إناثاً، بالرفق والكرامة وألا يغصبهم أحد في دورهم،

أو يسيء إليهم أو يتلف شيئاً من أمتعتهم أو محاصيلهم، وألاّ يعاشر نصراني مسلمة، أو مسلم نصرانية، ومن فعل ذلك يعاقب بالموت وتصادر أملاكه، وأن يُدفع الكراء العادل لمن يطلب منهم للعمل في بناء حصن المدينة(١١٩).

ويمكن أن نستشف من بنود هذه الوثيقة أن مناعة الحصن وصعوبة اقتحامه كانت من أسباب إبرامها، إذ أدرك ملكا قشتالة أن دخولهم الحصن بالقوة سيكلفهم الكثير من الخسائر، لذا أوهموا الأهالي بهذه الشروط المغرية التي تعهدوا بها من أجل الدخول إلى الحصن المنيع دون أي نية صادقة في الوفاء بها، ومن جانب آخر فإن قائد حامية حصن طشكر حبوس بن عبد العال أدرك أنه يصعب عليه المقاومة كثيراً وسط غياب أي دعم له من أبي عبد الله الزغل الذي كما يبدو لم يستطع أن ينجده خوفاً هجوم محتمل قد يقوم به ابن أخيه أبو عبد الله الصغير، لذا ترك الحصن المنيع يواجه مصيره بنفسه.

المبحث الرابع

الهجوم الثاني على مدينة بسطة وحصارها سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م

كانت مدينة بسطة حسب خطة الملك القشتالي تعد ((مفتاحاً لكل ما بقي بحوزة العرب من الأندلس، فإذا أخذ هذا المعقل الهام تبعه غواديكس والمرية حتماً، وبذلك ينتهي نفوذ الزغل إلى الأبد))(١٢٠)، وكان الجيش القشتالي قد تأخر في الهجوم على مدينة بسطة بسبب المقاومة التي لاقاها في حصن طشكر، فكان عليه الانتظار حتى نهاية الشتاء من سنة ٨٩٤هـ/١٤٨٨م، وعندما حلّ الربيع اجتمعت القوات الصليبية على حدود جيان المواجهة لمدينة بسطة وكانت الملكة إيزابيلا قد اصطحبت الجيش إلى هناك، وقد وصف إيرفنغ الجيش الصليبي المجتمع في جيان والمتأهب للهجوم على بسطة بقوله: ((وبزوال الشتاء العاصف وتقدم الربيع عام ١٤٨٩ م، ورغم تساقط الأمطار الكثيفة التي عطلت الطرقات، ورغم أن الينابيع ممتلئة والسواقي فياضة، والأنهار فائضة وخطيرة، رغم كل هذا اجتمعت القوات الصليبية على حدود جين أي جيان - لأجل حروب الصائفة، ولكن هذه القوات كانت بطيئة الوصول بقوافلها التي كان يصعب عليها اجتياز أي جدول مهما ضحل، فلم يكتمل التجمع إلا في آيار/مايو، حتى يبدأ الغزو، وأخيراً تجمع جيش من ثلاثة عشر ألف فارس وأربعين ألف راجل على الحدود، وبقيت الملكة في مدينة جين مع أولادها، بصحبة

كاردينال أسبانيا الأكبر، ومن يساعدها من مستشارين في هذه الحرب المقدسة))[١٢١].

وحسب إيرفنغ فإن تأخر الجيش الصليبي أمام طشكر قد مكن أبو عبد الله الزغل من تزويد مدينة بسطة بكل ما تحتاج إليه لمواجهة الحصار، كما أرسل نداءات استغاثة لكل المناطق للجهاد في سبيل الله، فلباه المسلمون من كل أنحاء الأندلس متطوعين للدفاع عن بسطة، ولم يمنع تواجد القوات النصرانية في غرناطة مع أبي عبد الله الصغير من تسلسل الكثير من الفرسان من أهالي غرناطة والتوجه إلى بسطة للمشاركة في الدفاع عنها، كما أرسل أبو عبد الله الزغل إلى واليه على المرية وصهره يحيى النيار بن سليم والذي يسميه إيرفنغ بسيدي يحيى بالتوجه إلى بسطة بأسرع وقت ممكن، فأسرع القائد يحيى ومعه عشرة آلاف مقاتل، وعندما وصلوا إلى مدينة بسطة خرج الأهالي لاستقبالهم، وانضمت إليه القوات المنسحبة من حصن طشكر بقيادة حبوس بن عبد العال، فضلاً عن قوات المدينة نفسها، وبذلك بلغ عدد القوات الإسلامية المدافعة عن مدينة بسطة عشرين ألف مقاتل، وكان سيدي يحيى هو القائد العام لهذه القوات[١٢٢]، أما أبو عبد الله الزغل فإنه لم يستطع مغادرة مقره في مدينة وادي آش خشية أن يهاجمه ابن أخيه أبو عبد الله الصغير في غيبته[١٢٣].

لم تكن الطبيعة المحيطة بمدينة بسطة سهلة المنال، فهناك شبكة كبيرة من الأنهار والجداول التي تغطيها غابات كثيفة من أشجار الفاكهة والزروع تبدو للناظر كالغابة فضلاً عن سور المدينة والأبراج المحيطة بها والتي تؤمن الحماية لها، وقد وصف إيرفنغ تلك التحصينات المحيطة بمدينة بسطة بقوله: ((أما مدينة بازا فكانت في وادٍ عظيم خصب، بطول حوالي أربعة وعشرين ميلاً وتسعة أميال عرضاً، ويسمى حوض بازا الذي تحيط به الجبال المسماة سيرا إكسا بالالكول التي منها تندفع مجموعة من الجداول وتجتمع بنهرين يسقيان هذه البلاد الخصيبة، ورغم أن المدينة مبنية في السهول إلا أن جزءاً منها يستند ويحتمي بالجبل وعليها قلاع قوية، ويحيط بالمدينة سور عالٍ وشديد، فيه أبراج هائلة، وللمدينة ضاحية من جهة السهل محمية بجدار طيني سيء - دكّ - وأمام هذه الضاحية مصاطب مزروعة بالحدائق طولها جوالي ثلاثة أميال، وبها زراعة كثيفة جعلها تبدو كغابة، يمتلكها سكان المدينة بشبه تساوٍ، بحيث أن لكل منهم تقريباً حديقته الخاصة التي يزرع فيها حاجته من الفواكه والأزهار والخضار، ويسقي هذه المصاطب جداول مائية صناعية تتحكم بها

عبارات من الماء الذي يأتي من جانب الأبراج الدفاعية للمدينة ويمكن التحكم بها منها، من خلال مجموعة سكور تشكل نوعاً من الحماية لهذا الجانب من المدينة الذي يمكن إغراقه إذا فتحت، فيستحيل المرور بهذه المصاطب - الجروف - أو يصعب إلى أقصى الحدود، مما يؤمن الدفاع عن المدينة من هذا الجانب)) (١٢٤).

وعندما أخذ الجيش الصليبي يتقدم باتجاه مدينة بسطة عمل أهالي المدينة على حصاد زروعهم فضلاً عن قطعان المواشي والأغذية إلى داخل المدينة فأصبحت لديهم من التجهيزات والأغذية ما يمكنهم من الصمود خمسة عشر شهراً(١٢٥).

وفي رجب من سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٨ م تقدمت قوات قشتالة بقيادة الملك فرناندو مع باقي القوات الصليبية إلى مدينة بسطة واستولت أولاً على العديد من الحصون القريبة منها، ولإدراكه بقوة حامية المدينة وقوة تحصيناتها ترك قسماً من قواته تضرب الحصار عليها فيما سار هو نحو ميناء المنكب(١٢٦) Almunecr(١٢٧) في محاولة ذكية منه بقصد إطالة أمد الحصار على أهل بسطة وإرهاقهم أولاً ثم لتقسم سلطنة غرناطة إلى قسمين، لأن استيلاءه على ميناء المنكب يجعل مدينة المرية معزولة تماماً يمنع من خلالها أي مساعدات قد تصل إلى غرناطة عن طريق البحر لاسيما وأنه كان قد استولى على مالقة منذ سنة ٨٩٢ هـ/١٤٨٦ م، كما أصبحت غرناطة وما يليها من أراضي المسلمين معزولة تماماً عن البحر.

وأخيراً نصب الملك القشتالي فرناندو خيمته أمام مدينة بسطة وأحاطت بقية القوات الصليبية بالمدينة من معظم جهاتها وأخذت عليها المنافذ، ثم أرسل طلبه إلى سكان المدينة بالاستسلام واعداً إياهم بأحسن الشروط إذا نفذوا طلبه وهددهم بأشد العواقب في حالة رفضه وحذرهم بأنه مع باقي قواته سيواصلون الحصار مهما طال الوقت(١٢٨).

عندما قرأ قائد مدينة بسطة يحيى النيار الطلب شعر بالإهانة وأعلن أنه لن يستسلم حتى لو دُفن تحت الأنقاض، إلا أنه تراجع عن قراره هذا بعد عقده مجلس حرب مع أعيان المدينة تشاوروا خلاله طلب الملك القشتالي، فقرروا إرسال جواب أكثر ليونة شكروه فيه على شروطه ثم أوضحوا له أنهم موجودون للدفاع عن المدينة لا لتسليمها(١٢٩).

عندها قرر الملك القشتالي تشديد الحصار على مدينة بسطة وحاول دفع بعض قواته

التقدم إلى ما وراء الحدائق المحيطة بالمدينة والوصول بالقرب من أسوارها كي يمكن بطاريات المدفعية أن تضرب الأسوار، وما أن تقدمت قوات الخيالة النصرانية نحو الحدائق حتى خرجت إليهم قوة مشاة من أهالي بسطة بقيادة يحيى النيار (الذي تسميه الرواية النصرانية بسيدي يحيى) للتصدي لهم، فقد أدرك المدافعون أهمية الحدائق كخط دفاعي، وأخذ يحيى النيار يثير حماس قواته بأنهم يدافعون عن الأهل والنفس والوطن والدين، فاشتبكوا مع القوة القشتالية، وبسبب كثافة الأشجار والجداول اضطرت القوة القشتالية إلى الترجل لعدم إمكانية الخيل في المناورة في تلك البيئة، ودارت رحى معركة طاحنة وصفها إيرفنغ بقوله: ((...، فصارت مذبحة تحت ظل كل شجرة ووردة تختلف باختلاف موقعها، وتتفق بشكل وحشيتها بشكل متميز، لذلك لم يكن أحد يرى سوى ما حوله من منظر سفك دم، ولا أحد بالتالي يعرف أي شيء عن تطور المعركة ككل، وكل نداءات المقدمين، وكل أبواق النفير، ذهبت هباء ولم تسمع عبر صوت الأسنة، وأنين الجرحى، وزمجرة الرجال، التي صارت عامة شاملة، فلم يلتف واحد حول علمه، ورح كل واحد يقاتل حسب ما تملي عليه حماسته الشخصية، فكان للنصارى تقدم في بعض المواقع، والعكس للعرب، ليقع المتقدم الذي يطارد خصمه في خضم جيش الخصم دون أن يلاحظه، فيصير الهارب مهاجماً والمهاجم هارباً، بموجات متداخلة مع بعضها في هذا الصنف من القتال، حتى أن البعض من شدة ارتباكه يلجأ لعدوه، دون أن يتمكن أحد من معرفة صديقه من عدوه خلال هذا الصراع المبتذل، لكن العرب كانوا الأمهر في هذا الصنف من المواجهة بالقتال، لمرونتهم وخفتهم ورشاقتهم وسرعتهم بالضغط على الخصوم كراً وفراً، فكرً ثانية مما كان يرهق خصومهم))[١٣٠].

وكان الملك فرناندو يراقب المعركة من حافات لحدائق ويشجع جنوده بالصمود وهو يرى المعركة أخذت بغير صالحهم، فأخذ بإرسال تعزيزات لرفع معنوياتهم، وفي المقابل ومن فوق أسوار مدينة بسطة كان النساء والأطفال يرسلون صرخاتهم لمقاتليهم بالصمود، إلا أن تلك التعزيزات مكنت الجانب النصراني من تعزيز وجدوده واضطر المسلمون من أهالي بسطة إلى التراجع المنظم ووضع متاريس جديدة، وبعد اثنتي عشرة ساعة من المعارك الضارية جاء الظلام ليرخي سدوله بين الفريقين وقد خيم الإعياء على الجانبين إلا أنه كان أشد على الجانب النصراني كونه في أرض جديدة وقريب من الأسوار فهم في مرمى أهالي

وجيش مدينة بسطة، وطوال الليل كثف أهالي بسطة رشقاتهم على النصارى مما منعهم من النوم والراحة وأوقعوا بهم جراحات بليغة، وما أن سطعت أضواء صباح اليوم التالي أمام سور مدينة بسطة وإذا الجيش النصراني المنهك يصحو على جثث الكثير ممن فتك بهم المسلمون طوال الليل فضلاً عن العدد الكبير من الجرحى الذين صعب عليهم إنقاذهم، وأمام هذا الموقف الصعب قرر الملك القشتالي سحب قواته إلى خلف الحدائق (١٣١).

أوقع هذا الهجوم الفاشل الإرباك في صفوف النصارى، فتمركزه خارج حدود الحدائق والغابات يعرضه للكثير من المخاطر، فالمدفعية لم تستطع أن تنال من أسوار المدينة، كما أن كثرة المياه والأشجار والأدغال سيعرض الجيش للأمراض، فضلاً عن أن الأمطار إذا عادت ستغرق الجداول والمنطقة بالمياه وتعزل المدينة عن الجيش النصراني المحاصر لها، وأما هذا الموقف قرر الملك القشتالي فرناندو إرسال رسوله إلى الملكة إيزابيلا المقيمة في مدينة جيان طالباً منها الرأي وفيما يعمل، فردت الملكة فوراً بأنها خولت الملك وقادته بتقدير الأمر واتخاذ ما يلزم، وفي حال استمرارهم بالقتال تعهدت بإرسال المزيد من المال والعتاد والرجال حتى تستسلم المدينة أو تؤخذ عنوة (١٣٢)، فساهم هذا الرد من الملكة على رفع معنويات الجيش الصليبي النصراني وقرروا الاستمرار في حصار بسطة.

كانت المنطقة الخضراء الكثيفة التي تحيط بمناطق من محيط مدينة بسطة تعد أهم معوقات تقدم الجيش الصليبي نحوها، لذا قرروا اقتلاع تلك الأشجار، فتقدم أربعة آلاف فارس وثمانية آلاف راجل من المشاة نحو أحد جهات المدينة فيما تقدم ستة آلاف فارس وعدد كبير من الشاة من الجهة المقابلة لهم، وكان أغلب أولائك الفرسان من فرنسا والنمسا، وهم مزودون بكل آلات الهدم والفؤوس، وأخذوا يعملون بقطع الأشجار من أجل إزالة ذلك الغطاء الشجري الذي كان يحول بينهم وبين التقدم نحو المدينة، وعبثاً حاول المدافعون من أهالي بسطة إيقاف ذلك، وقد سخر الملك القشتالي معظم قواته لتحقيق ذلك الهدف، وقد وصف إيرفنغ ذلك العمل الشاق بقوله كان فرناندو: ((يعرف مدى أهمية إزاحة هذا الحاجز الشجري الذي يشكل ما شبيه الستارة الحامية للمدينة، فسخر كل قواته لقلعها، رغم ما في هذا العمل من جهد عظيم مضنٍ، وما يحتاجه إلى صبر وَجَلَد، لأن الأشجار كانت ضخمة جداً ومتراصة وممتدة على مسافة شاسعة يصعب قطعها، لكن الذي سخرهم

الملك لهذا الشأن، كانوا أربعة آلاف رجل، ورغم كل ذلك كانوا لا يقطعون أكثر من عشرة أمتار - خطوات - مربعة في اليوم، بما فيه من مقاطعة لعملهم بسبب مهاجمة العرب المتكررة، لذلك استغرق العمل مدة أربعين يوماً كاملة، قبل إزالة كل أشجار هذه - المصاطب - الحديقة))[١٣٣].

وهكذا أصبحت مدينة بسطة عارية من بساطها الأخضر ومكشوفة بعد إزاحة أشجارها، ثم عملوا على إحكام طوق حصارٍ خانق حول المدينة في محاولة لعزلها تماماً ومنع وصول أي إمدادات إليها من الخارج، فقاموا بحفر خندق عميق طوله ثلاثة أميل (أي ٦ كم) يربط بين المعسكرين اللذَيْن طوقا المدينة، وعنه حولوا مياه الجداول وحموه بالمتاريس، وبنو على طوله خمسة عشر برجاً للمراقبة، كما حفروا خندقاً آخر عميقاً لمسافة ستة أميال (أي ١٨ كم) عبر الجبال خلف المدينة ليصلوا بين معسكرَيْهم من خلفها، ودعموه بحائط ترابي وصخري، كما حاول فرناندو بعد أن أطبق جيشه الصليبي على مدينة بسطة من جميع جوانبها قطع المياه عن المدينة باقتراح من القس والمؤرخ النصراني آغابيدا الذي قال له: ((أهم لهؤلاء اللامؤمنين من الخبز، لأنهم يغتسلون به يومياً من أجل وضوئهم الذي يجعلهم لامعين، فيتمتع بذلك رجال دينهم الشياطين، بألف طريقة وثنية بالحمامات وسواها من مقرات اللذائذ، التي لا نهتم بها نحن الإسبنيار المسيحيين)) [١٣٤]، وعندما علم المسلمون عمدوا إلى نافورة قريبة منهم وحفروا منها قناة يتسرب منها الماء إلى داخل المدينة بحيث يصعب على النصارى تحويلها [١٣٥].

وفي الوقت الذي استمر الجيش الصليبي يحاصر مدينة بسطة وهي شامخة بوجهه، حاول الملك القشتالي القيام بعملية لرفع معنويات جنده، فأرسل عدد من جنوده بحملة تعرضية على مدينة وادي آش التي يتحصن بها السلطان أبو عبد الله الزغل، وذهب إيرفنغ إلى أن هذه العملية كانت تهدف إلى مباغتة مدينة وادي آش والحصول على الغنائم، وتشكلت القوة من ثلاثمئة فارس ومئتي راجل وتحركوا تحت جناح الظلام ووصلوا إلى أطراف مدينة وادي آش ونهبوها وساقوا معهم قطعان المواشي وعدد من الأسرى وانسحبوا، وعندما أحس الزغل بذلك أرسل في إثرهم قوة تمكن الفرسان النصارى من هزيمتها ورجعوا إلى معسكرهم محملين بالغنائم وقد نالوا بذلك ثناء الملك القشتالي واستحسانه[١٣٦].

كان صدى هذه الهزيمة التي حلت بجند أبي عبد الله الزغل فضلاً عن حصار مدينة بسطة وعجزه عن نجدتها ومعاناة أهلها وصرخاتهم تدوي في معظم أنحاء ما تبقى بيد المسلمين من الأندلس لاسيما غرناطة التي بقي فيها أبو عبد الله الصغير يتفرج لا يحرك ساكناً، لذا تحرك العديد من أهالي غرناطة لنجدة المدينة المحاصرة وفعلاً تسلل العديد منهم إليها، وحينما علم فرناندو بذلك قام بقطع ((كل إمداد يصل إلى المدينة، ولتعترض أي قوة متطوعة من غرناطة، ولأجل هذا الغرض بنى فرناندو أيضاً أراجاً جديدة على كل مرتفع إطلاق الإنذارات حين رؤية أية عمامة قادمة، وهكذا بالتدريج أطبق بحصاره على سيدي يحيى ورفاقه الشجعان داخل أسوارهم، بعزلهم عن بقية العالم، وخط الأبراج المواجه للمدينة كان يُعزز دوماً بقوات صليبية جديدة وإضافية من كل العالم المسيحي في كل أسبوع بعد أسبوع، وعلى هذا المنوال راحت الأيام تمر وفرناندو ينتظر من الحامية الخوْر أو المجاعة كي تستسلم))[١٣٧].

وخلال أيام الحصار تلك لم يخلو يوم من مواجهات وهي كرّ وفرّ من الجانبين، وكانت الكمائن تُنصب من الجانبين توقع الخسائر بهم جميعاً، كما تخلل ذلك أيضاً العديد من المبارزات الفردية التي تقع أمام الأسوار أو عند حافة الجبل القريب من بسطة، وقد تفوق المسلمون أثناءها بشكل واضح وأوقعوا خسائر في العديد من رجالات النصارى، مما دفع فرناندو إلى منع هذه المبارزات الفردية لأنه يعرف أن المسلمين متفوقون فيها مما سيضعف الروح المعنوية لجنده، لذا فأنه كان يفضل القيام بهجمات بأعداد كبيرة، وكان معول المسلمين الوحيد بعد أن انقطع أملهم بمساعدات من الزغل أو غيره هو أن يتعب النصارى من الحصار ويسود بينهم التذمر فينسحبوا[١٣٨].

المبحث الخامس

محاولات الاستغاثة

وفي تلك الأثناء أرسل أبو عبد الله الزغل استغاثة إلى سلطان مصر الملك الأشرف قايتباي المحمودي[١٣٩] لنجدة المسلمين في الأندلس، فأرسل الأخير عدة سفارات إلى بعض زعماء النصارى آنذاك منهم البابا في روما وكذلك إلى ملكي قشتالة، وبخصوص السفارة الأخيرة فقد أرسل اثنين من قساوسة بيت المقدس أحدهما يعرف أنطونيو ميلان، وقد وصلا

إلى أسبانيا في أواخر خريف سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٨ م وهما يحملان رسالة من سلطان مصر إلى بلاط قشتالة يعاتبان فيها ملوك النصارى على ما يتعرض له المسلمون في الأندلس وغرناطة من غزو أراضيهم وسفك دمائهم في وقت كان الملايين من النصارى في مصر وبيت المقدس يتمتعون بجميع الحريات آمنين على أموالهم وأنفسهم وعقيدتهم، وطالب بالكف عن الاعتداء عن المسلمين وإيقاف غزو أراضيهم، وبعكسه فإن السلطان سوف يضطر إلى المعاملة بالمثل لرعاياه النصارى ويمنع دخولهم إلى الأراضي المقدسة، بل وقد يعمل على هدم قبر المسيح عيسى وكل الأديرة والمعابد في بلاده [١٤٠].

وأضاف المؤرخ والقس آغابيدا المعاصر للأحداث، بعد أن أعطى وصفاً دقيقاً للسفيرين، أنهما هددا ((ما لم تقف هذه الحرب، ويستعيد مسلمو مملكة غرناطة كل ممتلكاتهم التي هُجّروا منها، سوف يعمد إلى قتل كل نصارى بلاده، وإزالة كنائسهم وأماكن عبادتهم، وأكثر من ذلك سوف يدمر كنيسة المهد والصليب المقدس، هذا التهديد المرعب انتشر في كل الجزيرة)) [١٤١].

وقد جرت هذه المقابلة بين السفيرين وملك قشتالة فرناندو تحت أسوار مدينة بسطة وهو محاصر لها، وجرى لهما استقبالاً حافلاً ومميزاً، ثم سلما له رسالة سلطان مصر، وقد وصف آغابيدا ذلك بقوله: ((لذلك استقبل فرناند هذين الرجلين بكل تميز أكثر من سواهم ممن يلبس لباس الرهبنة في قصره ويميز نفسه به، وأمضى معهما أحاديث طويلة عن البلاد المقدسة، ووضع المسيحيين والكنائس فيها تحت حكم هذا السلطان المصري، وسياسة هذا الكافر تجاهها، وكان جواب الفرنسيسكان صريحاً وواضحاً، بينما كان الملك يظهر مدى تميزه اللغوي في عصره، رغم أنه قد أصغى في الواقع إلى همس صاحبيه المليء بالحكمة والتواضع والوضوح والطلاقة)) [١٤٢].

وقد زعم آغابيدا أن السفيرين أظهرا نوعاً من العطف والارتياح لما شاهداه من بطولات أبناء دينهم من النصارى وهم يجالدون أعداءهم المسلمين على أسوار مدينة بسطة وأخذوا بالدعاء لهم على عدوهم، وتمنوا أن يمكنهم الرب من حملة صليبية أخرى إلى البلاد المقدسة، إذ قال: ((إن ما سمعاه المبعوثان من الملك، وما شاهداه في المخيم، وهما محاطان بالفرسان والمجاهدين، كان درساً حقيقياً لهما جعلهما يرسخان إيمانهما بالأراضي

المقدسة أرض الصليب المقدس للرب سيدنا، ومعاناة من يحفظهما من إخوانهم، وما يقدمه لها الحجاج من نذورهم رغم كل الصعاب، فهي باب النجاة التي ستظل مشعة على قلوب هؤلاء الرجال وهم يلبسون الزرد والحديد، لكي يرفعوا من شأن الصليب بكل أباء على العدو، وتواضع فيما بينهم، يظهر بمدى عمق تبجيلهم لهؤلاء الزوار، وخفض أصواتهم أمامهم، وهم يخبرونهم أخباراً وقصصاً عمّا حصل لهم من معارك مع هؤلاء الزنادقة، وهم يقبضون على مقابض سيوفهم، ويصرون على أسنانهم لما سيحصل مع إخوانهم هناك في الأراضي المقدسة، وفي الوقت نفسه يصلون لهم دائماً، ويدعون الرب أن يمكنهم من حملة صليبية أخرى إلى تلك البلاد))[١٤٣].

وبعد انتهاء مهمة السفيرين في مقابلة الملك القشتالي فرناندو ودعهما بمثل ما استقبلهما من حفاوة، توجها إلى مدينة جيان لمقابلة الملكة إيزابيلا وقد وصف إيرفنغ نقلاً عن آغابيدا تلك المقابلة بقوله: ((واتجهوا نحو جين لزيارة أرفع ملكة كاثوليكية، يعتبرون قلبها مقراً لكل شفقة وإحسان - حين كانت تصلي وتسمع اغتصاب الأطفال أمامها في قصبة ملقة[١٤٤] - فاستقبلتهم كرجال مقدسين بهم ما يزيد عن كل كرامة إنسانية وظلوا بحضرتها طوال إقامتهم في المدينة، وكان المحترم الأب السفير قد أغدق جلالتها بعباراته الأدبية اللاتينية الفخمة، كما لاحظ مرافقوه الذين وجدوا إذناً صاغية من الملكة لها دوماً، وكان هذا الحلس [١٤٥] الملس [١٤٦] ينال دوماً الجوائز على تواضعه، فقد أكد آغابيدا: أنها ضمنت له دخلاً سنوياً بقيمة ألف دوقة من الذهب لينفقها كما يشاء على رهبان الصليب المقدس في القدس، وأكثر من ذلك وفي لحظة وداع هؤلاء السفراء قدمت لهما الملكة الكاثوليكية الورعة شالاً حاكته يداها الغاليتان، كي يوضع فوق كنيسة القيامة في مكان الصليب المقدس، كأثمن هدية دفعت إلى كل عبارات الشكر من حاملها، مما دفع بالدموع إلى عيني كل هذا الحضور المقدس))[١٤٧].

ونرى أن ما أبدياه الملكان الكاثوليكيان تجاه سفراء سلطان مصر من حفاوة واستقبال يمثل قمة الدبلوماسية المزيفة، فهما في الوقت الذي يظهران احترامهما للوفد الإسلامي كانا يمارسان أقسى أنواع التجويع والتهجير والقتل بحق المدن والقرى الإسلامية حول مدينة غرناطة، ومع ذلك أجابا السلطان بكل أدب ومجاملة: ((أنهما لا يفرقان في المعاملة بين

رعاياهما المسلمين والنصارى، ولكنهما لا يستطيعان صبراً على ترك أرض الآباء والأجداد في يد الأجانب، وأن المسلمين إذا شاءوا حياة في ظل حكمهما راضين مخلصين، فإنهم سوف يلقون منهما نفس ما يلقاه الرعايا الآخرون من الرعاية))[١٤٨].

وهكذا انتهت هذه المهمة دون أن نرى نتائج ملموسة لنجدة المسلمين في الأندلس، وقد أشار عنان إلى ذلك بقوله: ولسنا نعرف ماذا كان مصير هذه الرسالة، ولكنا نرجع أنها وصلت إلى بلاط القاهرة، وإن كنا لا نلمس لها أثراً في حوادث هذا العصر، وليس في تصرفات حكومة مصر يومئذ ما يدل على أن السلطان نفّذ وعيده، باتخاذ إجراءات معينة ضد النصارى أو ضد الآثار النصرانية المقدسة، والواقع أن بلاط القاهرة كان يشغل عندئذ بحركات بايزيد الثاني [١٤٩]، وصد غاراته المتكررة على الحدود الشمالية، وكان الاضطراب من جهة أخرى يسود شئون مصر الداخلية، ومن ثم فإنه يبدو أن محاولة مصر إنقاذ الأندلس قد وقفت عند هذا الحد، ولم تتعد قيام مصر بمظاهرة دولية تقوم على استغلال الظروف والمؤثرات الدينية، وهكذا فشلت هذه المحاولة الدبلوماسية الفطنة التي بذلتها مصر، وتركت الأندلس إلى قضائها المحتوم [١٥٠]، كما علق خطاب على ذلك قائلاً: ومن الواضح، أن وعيد سلطان مصر كان كاذباً، كما أن جواب الملكين له كان كاذباً أيضاً، لا يصدقه كاتبه ولا غيره[١٥١].

المبحث السادس

سقوط مدينة بسطة واستسلامها للنصارى سنة ٨٩٥ هـ/١٤٨٩ م

بعد أن انقطع أمل أهالي مدينة بسطة والمدافعين عنها من كل معين خارجي، كان معولهم الوحيد هو أن يأتي الشتاء وتفيض الجداول فيضطر المحاصرون إلى التراجع تحت ضغط الطبيعة، وقد أشار إيرفنغ إلى أن قائد بسطة كان يعول على ذلك بقوله: ((إن موسم الأمطار على وشك الهطول، وسينزل الفيضان من الجبال، وستملأ الأنهار والوادي بالماء، والملك الصليبي يعرف هذا جيداً، وهو لم يجرأ على مواجهة هذا الموسم بوادٍ معزول عن العالم بأقنيته ومياهه الفياضة، فعاصفة شتوية من جبالنا سوف تزيل مدينته المطرزة هذه، وكل شوارعها المزخرفة برشة بردٍ يعقبها هطول))[١٥٢].

لم يكن ذلك التفكير ليغيب عن الملك القشتالي وزوجته، فقد قررا أن يُحوّل المخيم إلى مدينة ثابتة بإمكانها أن تصمد لمقاومة الشتاء، ولكي يقنع المسلمين أنه مصر على الاستمرار في الحصار واقتحام مدينة بسطة، ولذا استدعى عدد كبير من المهندسين لسرعة البناء وانجاز العمل، وما أن انتهوا من ذلك حتى فاجأهم المطر ينزل بغزارة فانهارت الكثير من البيوت التي تم بناؤها، وتقطعت الطرقات وفاضت الجداول والأنهار، وانقطعت الإمدادات ليوم واحد، فساد الذعر في معسكر النصارى، إلا أن الأمطار لم تستمر إذ توقفت، وعادت مجاري الأنهار إلى وضعها السابق، وما أن وصل الخبر إلى إيزابيلا في جيان حتى جندت ستة آلاف شخص واستدعت الخبراء في إصلاح الطرق والجسور وأمدتهم بكل ما يحتاجونه من مال ومعدات حتى أعادت كل ما هدمته الأمطار، وبذلك تواصل تدفق الإمدادات إلى الجيش الصليبي المحاصر لمدينة بسطة [١٥٣].

وخلال شتاء سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٨ م أخذ المسلمون المُحاصرون في مدينة بسطة يكثفون من غاراتهم على القوات الصليبية بقيادة الملك القشتالي فرناندو أملاً منهم في زعزعة موقف الأخير تحت ضغط الشتاء القاسي، وفي الوقت نفسه أخذت الآمال تضيق بالمدافعين بسبب قلة التموين ونفاذ الأموال، ومن أجل رفع معنوياتهم واستغلال وقت الشتاء حاطب القائد المسلم سيدي يحيى أهالي بسطة المقاتلين قائلاً: ((إن العدو لا يجرواً أن يواجه الشتاء وهجماتنا معاً، لذلك سوف يرحل عنكم قريباً، لتعودوا إلى أسركم، ولكن عليكم تأمين رواتب الجند حتى تحميكم، فقد فرغت خزينتنا، وقطع عنا المدد، فمن المحال أن نظل ندافع دون عونكم))[١٥٤].

وقد لبى أهالي بسطة ذلك النداء من أجل إنقاذ مدينتهم من السقوط بيد الصليبيين، فجمع النساء حُليهنّ من ذهب وفضة لدفع رواتب الجند، وقد علق إيرفنغ على ذلك قائلاً: ((وهكذا صارت نساء بازا لا تبخل بحليها من أجل ذلك، فليس من الحكمة أن تُصّف المجوهرات على أيديهنّ وبلادهنّ والمدافعون عنها بحاجة إلى الخبز، وهكذا رحنّ يقدمنّ أساورهنّ وأطواقهنّ وكل مجوهراتهنّ إلى هذا السيد المدافع، لكي يستمر بحمايتهنّ وحماية أسرهنّ، لأنه إذا سقطت بازا فلا حاجة لهنّ بأي حليّ، يفرح بها ناهبوها، وهنّ سبايا لهم))[١٥٥].

وبذلك تمكن القائد يحيى النيار من دفع رواتب جنده لكي يتمكنوا من الدفاع عن بسطة بروح عالية، وعندما سمع الملك فرناندو بما فعل سكان بسطة من دفع المال للجند

على أمل انسحاب جيشه وترك الحصار قال: ((سأعطيهم برهاناً مقنعاً عن خطأ آمالهم هذه، فكتب إلى إيزابيلا طالباً منها أن تحضر إلى المعسكر مع كل حاشيتها بشكل علني، وتأخذ مكانها للإقامة معه في الشتاء، وبذلك يقتنع العرب بتصميم الملكين النهائي على استمرار الحصار حتى تستسلم المدينة، وقد تأكد بأن هذا سيسرع في إسقاطها))[١٥٦].

في الوقت أخذ الذي بعض الأمل يسود صفوف المسلمين المدافعين عن بسطة بأن صمودهم سيسهم في رفع الحصار، إذ سمعوا هتافات الفرح في صفوف الجيش الصليبي وأطلقت مدفعيتهم إحدى وعشرين طلقة تحيي زائراً كبيراً وصلهم، فإذا هو موكب الملكة إيزابيلا مع جميع حاشيتها وحرسها ورجال بلاطها، وقد وصف إيرفنغ الموكب بقوله: ((...، إنها الملكة، وهي تركب بغلاً عليه غلالة مطرزة بالذهب وتحف بالأرض، وعلى يمينها تركب ابنتها الأميرة إيزابيلا الصغيرة على مطية مزخرفة بشكل مشابه رائع، وعلى يسارها كاردينال أسبانيا الأكبر، ويتبعهم نساء البلاط وكوكبة من الفرسان، مع حرس من ذوي الرتب العالية بسلاحهم الفائق))[١٥٧].

وعندما تأكد أهالي مدينة بسطة من وصول الملكة إلى المعسكر الصليبي وانضمامها إلى زوجها سُقِطَ في أيديهم، وقد علق أحد قادتهم على ذلك قائلاً: ((أيها الفرسان لقد حُسِمَ مصير بازا))[١٥٨]، وقد اقترح البعض استغلال انشغال الجيش الصليبي بالملكة ومهاجمة ذلك الموكب، فاعترض القائد يحيى النيار على ذلك قائلاً: إن ((شخصية الملكة كأنثى تظل محترمة من كل الفرسان، عرباً كانوا أم أسباناً، وكل فرسانه يجسدون هذا الفهم الفروسي للأمور الذي تقره كل روح بطلة وثّابة، خاصة وأنهم من خيرة وأنبل فرسان هذه الأمة))[١٥٩].

وأشار إيرفنغ بأن أهالي مدينة بسطة هبوا بأجمعهم لمشاهدة ذلك الموكب وقد تدافعوا من على السور والأبراج ومنارات المساجد وكل شيء مرتفع للإطلال على هذا المنظر إذ ((بعد أن تلاقى الملكان وتبادلا القُبل والتحيات الرسمية، ليدخلا المعسكر على أنغام عسكرية، ليجعلوا أعين اللامؤمنين تزيغ بين لمع حرابهم ودروعهم المزركشة بالذهب، وسروج خيولهم الحريرية المطرزة بالخيوط الذهبية والفضية بألوانها البراقة، وبين الأنغام العسكرية التي تضرب الطبول والأبواق بكل عنف مع أصوات الهتافات التي يطلقها الجند لتشق عنان السماء))[١٦٠]، وأشار أيضاً أنه أمام انبهار أهالي بسطة وجندها ودهشتهم وفرح

النصارى بمليكهم توقفت كل الأعمال الحربية بين الجانبين (١٦١).

أدرك أهالي بسطة والقادة المدافعون عنها أن لا جدوى للمقامة وأن أي عناد سيؤدي إلى سفك المزيد من الدماء بدون مقابل، لذا طلب قائد مدينة بسطة من الجانب القشتالي التفاوض، وتشكلت هيئة من الجانبين اجتمعوا بين المعسكر النصراني والمدينة، وقد حذر الجانب النصراني الوفد المسلم من عواقب ما حصل بمالقة بسبب العناد، ووعد بأن المدينة إذا سلمت فوراً أن يعاملون كرعايا وتحمى أملاكهم وحريتهم ودينهم، عندها طلب الوفد المسلم الرجوع إلى المدينة للتشاور، وبعد مشاورات بين القادة ووجهاء مدينة بسطة قرروا الطلب من الجانب النصراني السماح لهم بمفاتحة السلطان الزغل في مدينة وادي آش عن شروط الاستسلام، وقد وافق الجانب النصراني على ذلك، وسهل مهمة ذلك الوفد الذي سيقابل السلطان الزغل (١٦٢).

وصل وفد مدينة بسطة إلى وادي آش واجتمعوا مع الزغل وسلموه رسالة القائد يحيى النيار التي شرح له فيها ما وصل إليه حال مدينة بسطة وما حلت بهم من مصيبة، عندها طلب الزغل منهم مشاورة أهل الحل والعقد والفقهاء بما يمكن عمله تجاه بسطة، إلا أنهم لم يتمكنوا من الوصول قرار واحد، وقد وصف إيرفنغ حالة الاضطراب التي حلت بالسلطان الزغل وحاشيته بقوله: ((والواقع أن الزغل ما كان يثق بهذه الرسالة لو أنها جاءت من شخص آخر، ولكنه كان يثق بسيدي يحيى كما يثق بنفسه، لذلك أصابه ما في هذه الرسالة بالقلب، فبعد أن قرأها شرد ذهنه طويلاً، وظل في صمت مطبق، ورأسه منحن على صدره، وأخيراً عاد إلى نفسه طلب أهل الحل والعقد والفقهاء في غواديكس، وأخبرهم بما حصل في بازا طالباً نصحهم، والزغل حين يطلب نصح الآخرين يكون منهك القلب، قد هدأت روحه القتالية، لأنه رأى نهاية حكمه تقترب، ولم يفعل هؤلاء أكثر من إضفاء المزيد من البلبلة على فكره، باختلاف آرائهم التي كانت كلها عقيمة، فما لم تدعم بازا بجيش قوي، لم تصمد، وقد ثبت استحالة دعمها بشكل فعال))(١٦٣).

وهكذا لم يتوصل المجتمعون في وادي آش من حسم الموقف، عندها اجتمع الزغل بالوفد بشكل منفرد وحملهم رسالة إلى القائد يحيى النيار يطلب منه فيها أن يتصرف بما يراه مناسباً وأنه لا يمكنه مساعدته، وعندما عاد الوفد إلى مدينة بسطة، وقرر القائد يحيى النيار

عقد شروط الاستسلام التي تضمنت: السماح ((لكل الجنود والفرسان الذين جاؤوا للدفاع عن المدينة من أماكن مختلفة أن يغادروا بسلاحهم وخيولهم وكل عتادهم، أو أن يبقوا في الضاحية ويتمتعوا بدينهم وقوانينهم، بعد حلف اليمين للملك، ودفع الضرائب التي كانوا يدفعونها الملوك العرب له، على أن تُسلّم المدينة وقلعتها خلال ستة أيام، خلالها يستطيع السكان الخروج بكل ما يملكون، وأثناء ذلك يستلم قائد ليون خمسة عشر طفلاً من أبناء وجوه البلد، وحين سيسلم سيدي يحيى وسيدي محمد[١٦٤] هؤلاء الرهائن الذين من بينهم أولادهما، يؤديا فروض الطاعة للملك والملكة))[١٦٥].

وهكذا بعد حصار دام ستة أشهر وعشرين يوماً استسلمت مدينة بسطة، إذ أن حصار المدينة بدأ في رجب من سنة ٨٩٤ هـ/١٤٨٨ م، ودخلوها في العاشر من محرم سنة ٨٩٥هـ/الموافق الرابع عشر من ديسمبر ١٤٨٩ م[١٦٦]، وأشار إيرفنغ عقب ذلك بقوله: ((ودخل الملك والملكة في اليوم التالي من الفاتحين، وقد أخرجوا منها خمسمئة أسير مسيحي، استقبلهم المعسكر بالتهليل والفرح العام،...، وقد كانت خسائر الصليبيين في هذا الحصار عشرين ألف رجل، مات منهم سبعة عشر ألفاً بالأمراض))[١٦٧].

وقد وصف مؤلف مجهول مسلم معاصر للأحداث حالة المسلمين في مدينة بسطة وظروف تسليمها إلى النصارى بقوله: ((والمسلمون قائمون ببلدهم غالبون لعدوهم فكلما أَرَادَ الدنو من الْبَلَد قمعوه وردوه على عقبه خائباً خاسراً، وَلم يقدر على نصب نفط وَلَا عدَّة من آلَة الْحَرْب، فَلَمَّا كَانَ شهر شَوَّال شدّ عَلَيْهِم الحصار وَعمل على الْبَلَد سوراً من خشب وحفيراً عَظِيماً وَجعل على ذَلِك الرِّجَال والحرس لِئَلَّا يدْخل دَاخل من أنجاد الرِّجَال إِلَيْهِم الَّذين يأتونَ لنصرتهم وإعانتهم على عدوهم وَلَا من يجلب لَهُم الطَّعَام، فَلم يعبأ الْمُسلمُونَ بِمَا صنع بل كَانُوا يخرجُون من النقب ويهبطون من على الأسوار ويقتلونهم فِي محلتهم، وَفِي كل مَسْلَك يسلكونه حَتَّى قتلوا مِنْهُم خلقا كثيراً، وَكَانُوا يحملون الْمُسلمين الواردين عَلَيْهِم لنصرتهم بِمَا يَحْتَاجُونَ إِلَيْهِ من الطَّعَام فبقوا على هَذِه الْحَالة من شدَّة الْحصار شهر شَوَّال وَذَا الْقعدَة وَذَا الْحجَّة، وَفِي آخر ذِي الْحجَّة من عَام التَّارِيخ تفقد أَعْيَان الْبَلَد مَا بَقِي فِي بلدهم من الطَّعَام وَذَلِكَ فِي خُفْيَة من الْعَامَّة فَلم يَجدوا إِلَّا مَا يُقَام بِهِ أَيَّامًا قَلَائِل، فبعثوا لملك الرّوم وطلبوا مِنْهُ الْأَمان على شُرُوط اشترطوها فوجدوه رَاغِبًا فِي

ذَلك فَجعلُوا بَينهم هدنة وَالْكَلَام يتَرَدَّد بَينهم فِي خُفْيَة من الْعَامَّة فأجابهم بِجَمِيع مَا طلبوه منْهُ، فَلَمَّا كَانَ يَوْم الْجُمُعَة عَاشر محرم الْحَرَام فاتح عَام خَمْسَة وَتسْعين وثمان مئة أَدخل قواد الْبِلَاد جمعاً من النَّصَارَى للقصبة على حِين غَفلَة من الْعَامَّة فملكوا القصبة وقهروا من كَانَ بالْبَلَد من الْعَامَّة وَغَيرهم وَسقط فِي أَيْديهم ثمَّ إِنَّهُم سرحوا من كَانَ عِنْدهم من أنجاد الرِّجَال والفرسان الَّذين كَانُوا عِنْدهم يعينونهم على نصْرَة عدوهم فَخَرجُوا مُؤمنين بخيلهم وأسلحتهم وأمتعتهم كَمَا شَرط عَلَيْهِ قواد الْبَلَد فَسَارُوا إِلَى مَدِينَة وَادي آش وأخلوا الْبَلَد للنَّصَارَى وَخَرجُوا إِلَى الأرباض بِمَا مَعَهم من أَمْوَالهم وأمتعتهم مُؤمنين وَلم يتْركُوا شَيْئاً))[١٦٨].

أما عن مصير قائد المدينة يحيى النيار ومساعده محمد بن حسان اللذين طالما وقفا مقاتليْن مدافعيْن مجاهديْن عن دينهم وبلدهم ومدينتهم ببسالة وإخلاص، فإن صاحب نبذة العصر لم يشر إلى ذلك، أما الرواية النصرانية فذهبت إلى أنهما وتحت بؤس النكسة ولحظات اليأس ومغريات الدنيا هبطا في درك الخيانة، واستسلما لمغريات الملكين الكاثوليكيين فارتدا عن دينهم واعتنقوا النصرانية، فتوجا لهما نهاية سوء، وقد علق إيرفنغ ذلك بقوله: ((فاستقبلهما الملك والملكة بحفاوة بالغة وبلطف زائد، وأهدياهما من أفخر الهدايا، كذلك قدما الهدايا إلى كل الفرسان معهما، وتضمنت المال والثياب والخيول وباقي الأشياء الثمينة، فامتن سيدي يحيى لهذه المقابلة، ولهذا الكرم من فرناند وإيزابيلا إلى درجة أنه أقسم أن لا يرفع سيفه ثانية ضد مثل هذين الملكين الكريمين، أما الملكة ولإعجابها بصموده وقدراته العسكرية وإخلاصه، أكدت له أن وجوده إلى جانبها قد أنهى الحرب التي تدمر غرناطة، وهكذا كانت الكلمات والمجاملات تخرج قوية من شفاه الملكين، مما جعل سيدي يحيى النيار يعجب ويغمر بالكلام الذي تقوله إيزابيلا، فشعر بولاء مفاجيء لها، فطلب منها أن تضمه إلى حاشيتها ليخدمها، وفي غمرة هذا الحماس المفاجئ طلب أن لا يكون سيفه في خدمتها فقط بل أن يستعمل كل نفوذه الذي كان عظيماً بإقناع مولاي الزغل بأن يسلم لها مدينتي غواديكس والمرية، وأن يكف عن عدائه للملكين، وقد كان تأثير هذا اللقاء الملكي قوياً جداً على هذا الفارس، ليصل الأمر إلى دينه، فقد تنور فجأة بأن المحمدية بدعة هرطوقية، وأعجب بالنصرانية كحقيقة دينية مستنيرة تخرّج ملوكاً بهذا الشأن، ولذا طلب أن يُعمّد، وأن يُحمل فوراً إلى الكنيسة))[١٦٩]، وجدير بالذكر هنا أن تحول القائد يحيى النيار إلى النصرانية وتعميده كان سرياً كي لا يعد مرتداً في عين شعبه[١٧٠]، كما أنه سيجند كل طاقته

بعد ذلك لخدمة الملك النصراني عن طريق تخذيل الناس وثنيهم عن المقاومة.

وأشار عنان إلى الوثيقة التي وقعها يحيى النيار مع مندوب الملك فرناندو في ٢٥ ديسمبر سنة ١٤٨٩م (محرم ٨٩٥ هـ) وفيها يؤكد فرناندو للقائد يحيى النيار زعيم بسطة وألمرية، بأنه سوف يستقبله تحت حمايته هو وولده وأبناء عمه، وينزلهم في داره، ويعاملهم بما يليق بهم معاملة أشراف مملكته، ويدافع عنهم وعن أملاكهم وأتباعهم، ثم يقول ملك قشتالة مخاطباً يحيى: وأنه إذا صحت عزيمتكم حقاً على اعتناق النصرانية، وعلى أن تخدمني وتعاونني برجالك، فإني سوف أكتم ذلك طول مدة الفتح، حتى لا يتقوّل عليك رجالك، ولهذا فإنك تستقبل التعميد المقدس سراً في غرفتي، حتى لا يعرفه المسلمون إلا بعد تسليم وادي آش ، وأن الكروم والقرى والحصون التي تؤول إليك بالميراث عن والدك أمير ألمرية، أهبها لك لتملكها وتتصرف فيها كما تشاء، وعهدي لك بذلك أنا والملكة زوجي، وأنه لن تدفع أنت وابنك وأبناء عمك وأعقابك وحشمك، أي مغرم أو جزية في سائر مملكتي إلى الأبد، وأنه تشريفاً لشخصك يسمح لك بأن يصحبك عشرون فارساً مسلحون بكل ما يرغبون، وأن تتجول بهم حيث شئت في أنحاء مملكتي، ويتمتع ولدك بمثل ذلك، وأنه إذا تنازل صهرك ملك وادي آش عن نصف الملاحات التي أهبها إليه، فإني أهبك دخلاً قدره خمسمائة وخمسون ألف مرافيدي في ملاحات دلاية[١٧١]، وفضلا عن ذلك، فإنه إذا تم تسليم وادي آش في الموعد المتفق عليه، فإني مكافأة لك على جهودك في خدمتي لدى ملك وادي آش وغيره من القادة، أهبك عشرة آلاف ريال، وأقدم لك سائر البراءات اللازمة بما تقدم[١٧٢].

المبحث السابع

نتائج سقوط مدينة بسطة على الأندلس

كان من أولى نتائج سقوط مدينة بسطة بيد القوات الصليبية بقيادة ملكي قشتالة أن ساد حالة من الذعر في معظم المناطق التي كانت في حوزة المسلمين من الأندلس ولاسيما مناطق شرق غرناطة، فسارعت معظم المدن والحصون القريبة من بسطة إلى التسليم والدخول في طاعة ملك النصارى، وقد علق صاحب نبذة العصر (وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله: ((ثمَّ إِن ملك الرّوم دمره الله جعل فِي الْبَلَد قائداً من قواده حَاكماً ورتبه وأشحنه بِمَا يحْتَاج إِلَيْهِ من أَطْعِمَة وَزَاد وآلَة حَرْب، وارتحل من مَدِينَة بسطة يُرِيد المرية فَلم

يمر على حصن وَلَا على قَرْيَة إِلَّا وَدخل أَهلهَا فِي ذمَّته وَتَحْت طَاعَته من غير حِصَار وَلَا قتال))[١٧٣]، ولم تختلف عن ذلك الرواية النصرانية، فقد أشار إيرفنغ إلى أنه بعد سقوط بازا (بسطة) استسلمت معظم الحصون والجبال القريبة بشكل سريع إذ ((كان الناس يأملون بالحصول على شروط جيدة شبيهة بالتي أعطيت لهذه المدينة، كما أمل أسياد هذه المناطق بجوائز مشابهة للتي حصل عليها قادتهم، ولم يخب أمل أيّ منهم، فقد سمح ببقاء السكان كخول للنصارى ليبقوا في أملاكهم وعلى دينهم، أما أسيادهم الذين راحوا يتوافدون على المعسكر لإعلان ولائهم، فكان فرناندو يستقبلهم بشكل متميز، ويحملهم الهدايا والأموال حسب أهمية المكان الذي كان تحت قيادتهم وسلموه، وكان الملك حريصاً على عدم التعرض لكرامتهم أو جرح كبريائهم، لذلك كانت الأموال تدفع لهم جزاء خدماتهم للحكومة السابقة، وهكذا بعد أن كان فرناندو يفتح البلاد بالسيف، وجد بعد بازا أن الذهب يكلفه أقل))[١٧٤].

وهكذا تحول يحيى النيار من مجاهد بطل إلى معول هدم وقدوة سيئة لبقية زعماء تلك الحصون الذين سارعوا إلى الارتماء في الخيانة وسلموا ما تحت أيديهم دون مقاومة مقابل شراء ذممهم بالأموال التي أغدقها عليهم الملك النصراني ضانين أن ما فعله المجاهد والورع يحيى النيار هو الأصلح لبلدهم ودينهم دون أن يطلعوا على خفاياه.

إلا أن علي بن فهر قائد حصن برشانة، وهو أحد الحصون التابعة لبسطة - عندما رأى زعيمه يحيى النيار وبقية رؤساء الحصون يتهافتون على هدايا الملك النصراني وقف صامتاً حين تسليم حصنه، وعندما قُدمت له الهدايا من قبل فرناندو رفضها بكل إباءٍ كما ذكر إيرفنغ قائلاً: ((أنا مسلم ومن أصول عربية ومغربية، وسيد مدينة وقلعة برشينا وباتريا اللتين عُهِدتا لي كي أدافع عنهما، ولكن من عهدهما قف فقد كل قوته وشجاعته، وطلب الأمن والدعة فقط، وهذه الحصون قد صارت إليك أيها الملك، لأنه لم يعد معي من أدافع عنها به، ولك أن ترسل من تشاء لأخذها، فقد تركتها الحاميات التي فيها، فأمر فرناند بمال كثير له لأهمية هاتين القلعتين، لكن السيد رفضها بكل إباءٍ قائلاً: لم آت لبيع ما لا أملك لمن لا يستحق، ولكن لأخضع بعد أن خضع سادتي، فتأكد يا صاحب الجلالة أنه لو تركت لي الفرصة لاخترت الموت على هذا الموقف المهين ببيع قلاعي، فلا حاجة لي بذهبك))[١٧٥].

وقد أُعجب الملكان الكاثوليكيان من جرأة هذا القائد المسلم وشهامته، فطلبت منه الملكة إيزابيلا أن يكون في خدمتها قائلة: ((بماذا يمكننا أن نكافئك ؟ فأجاب: لقد تركت في الوادي والبلاد التي كنت أحميها الكثير من العائلات التعيسة مع أبنائها وشيوخها الذين لا يمكن قلعهم من وطنهم، وكل ما أريده هو وعد من جلالتكم بأن يبقوا، وتحمونهم وتبقوا على دينهم وبيوتهم، فأجابت الملكة: لك هذا، أما لنفسك فماذا، ماذا تطلب لنفسك؟، فرد: لا شيء سوى أن أغادر دون أن أنهب أنا وحصاني هذا إلى إفريقيا))[١٧٦]، وأضاف إيرفنغ أن الملكان زوداه براحلة فخمة وملئوا خرجها ذهباً، لكن علي بن فهر رفض ركوبها، مؤكداً لهما أنه يعتبر نفسه مجرماً، لو فعل وأبناء بلاده في هذه الحال، ورفض كل مال يناله من خراب بلاده، واكتفى بجواز سفرٍ منهما تحرك به مع حشمه وخدمه ودروعه وكل أدواته الحربية، مودعاً أصحابه وبلاده دون أن يذرف قطرة دمع واحدة، ثم وجه حصانه العربي بعيداً عن هذا الوادي الرائع موطنه المغلوب، مغادراً بقافلته الصغيرة الوحيدة بكرامته نحو الرمال المحرقة الإفريقية))[١٧٧].

ومن النتائج المباشرة لسقوط بسطة هو استيلاء النصارى على مدينة المرية، إذا بعد شهر من سقوط بسطة توجه فرناندو نحو مدينة المرية التي سلمت هي الأخرى دون قتال وذلك في ربيع من سنة ٨٩٥هـ/شباط ١٤٨٩م، وكانت شروط تسليمها قريبة من تلك التي منحوها لمدينة بسطة وخلاصتها: ((أن يحتفظ المسلمون بدينهم وشريعتهم وأموالهم، وأن تخفف عنهم أعباء الضرائب، وألاّ يولى عليهم يهودي، وألاّ يدخل نصراني في الجماعة، وأن يختار الأولاد الذين يولدون من أمهات من النصارى لأنفسهم، الدين الذي يريدون عند البلوغ))[١٧٨].

وهكذا بعد سقوط كل من مدينتي بسطة والمرية والحصون التي بينهم لم يبق أما الملك النصراني سوى مدينة وادي آش التي كان يتحصن بها الزغل، وهنا جاء دور القائد يحيى النيار الذي لم يطلع أحد على خيانته، فأرسله الملك النصراني إلى صهره أبي عبد الله الزغل ليقنعه بعدم جدوى المقاومة وضرورة تسليم مدينة وادي آش والانضواء تحت طاعة الملك النصراني، وخلال المقابلة تمكن النيار من إقناع الزغل وأثمرت خيانته لدى صهره الزغل، وقد علق صاحب نبذة العصر (وهو معاصر للأحداث) على ذلك بقوله: ((ثمَّ خرج الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد من مَدِينَة وَادي آش تَابعاً لصَاحب قشتالة فَلَمَّا لحقه بَايعه

وَدخل فِي ذمته وَتَحْت طَاعَته على أَن يُعْطِيه مَدِينَة وَادي آش وكل مَدِينَة وحصن وقرية كَانَت تَحت طَاعَته وَحكمه، فَأَجَابَهُ إِلَى مطلبه وَرجع مَعَه إِلَى وَادي آش وَهُوَ فَرح مسرور فَدَخلَهَا الْعَدو وَقبض قصبتها وَاسْتولى عَلَيْهَا فِي الْعشْر الأول من شهر صفر عَام خَمْسَة وَتسْعين وثمان مئة وَدخل فِي ذمَّته جَمِيع فرسَان الْأَمِير مُحَمَّد بن سعد وَجَمِيع قواده وصاروا لَهُ عوناً على الْمُسلمين وطوعوا لَهُ جَمِيع الْبِلَاد والقرى والحصون الَّتِي كَانَت تَحت طاعتهم من مَدِينَة المرية إِلَى مَدِينَة الْمنْكب وَمن مَدِينَة الْمنْكب إِلَى قَرْيَة البذول فَقبض صَاحب قشتالة ذَلِك كُله من غير قتال ولا حصار وَلَا تَعب وَلَا نصب فَإِنَّا لله وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُون، وَجعل فِي كل قَصَبَة قائدا نَصْرَانِيّا مَعَ جمَاعَة من النَّصَارَى يحكم فِي ذَلِك الْموضع، وَفِي هَذَا الشَّهْر خلصت جميع بِلَاد الأندلس لصَاحب قشتالة وَدخلت تَحت طَاعَته وتدجن جَمِيع أَهلهَا وَلم يبْق للْمُسلمين فِي الأندلس غير مَدِينَة غرناطة وَمَا حولهَا من الْقرى خَاصَّة))[١٧٩].

لم يبق أمام ملكي قشتالة سوى غرناطة، وكان أبو عبد الله الصغير قد دخل في طاعتهما ولم يحرك ساكناً طيلة مدة الصراع الذي دار بين عمّه الزغل وبين النصارى، بل كان خنجر خاصرة له عن إنجاد مدينة بسطة عندما حاصرها النصارى، لذلك بعد سقوط بسطة ووادي آش واستسلام عمّه الزغل، اضطر أبو عبد الله الصغير إلى تجديد المعاهدة مع ملكي قشتالة، وقد أنحى أبو عبد الله الصغير بالأئمة على خصمه أبي عبد الله الزغل لما آلت إليه الأمور في غرناطة، ففي رسالة وجهها إلى قائد بلدة أجيجر نعى فيها ((على معارضيه مواقفهم، التي انتهت بسقوط بسطة: التي أفجعت المسلمين، وفلّت غرب الدين))[١٨٠] .

وعليه فإن سقوط مدينة بسطة كان فاتحة لسقوط معظم المدن والحصون الأندلسية بسهولة ويسر وبدون قتال، وهذا أدى إلى عزل مدينة غرناطة التي بات سقوطها أيضاً محتوماً، وقد تحقق للنصارى ذلك بعد حوالي سنتين من سقوط بسطة، إذ تمكن الملكان الكاثوليكيان من الاستيلاء عليها في الثاني من ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ/الموافق الثاني من كانون الثاني ١٤٩١م[١٨١].

الخاتمة:

حكم المسلمون مدينة بسطة للمدة (٩٢-٨٩٥هـ/٧١٠-١٤٨٩م) أي حوالي ثمانية قرون، وبسبب موقعها في المنطقة الجنوبية الشرقية من الأندلس بقيت بعيدة عن الأحداث الكبرى

التي شهدتها الأندلس في صراعها مع النصارى لقرون عدة، إلا أنه خلال المرحلة الأخيرة من دولة بني الأحمر في غرناطة (٨٦٨ - ٨٩٧هـ/١٤٦٣-١٤٩١م) تمكن النصارى من إخضاع معظم مناطق الأندلس وغدت مدينة بسطة مدينة ثغرية تلامس حدود مملكة قشتالة، وبسبب أهمية المدينة فقد أدرك النصارى أن مفتاح غرناطة يكمن في احتلالهم مدينة بسطة، وقد توصلنا إلى هذه النتيجة من خلال البحث، إذ أن النصارى لم يتمكنوا من الاستيلاء عليها إلا بعد أن حشدوا لها قوات صليبية هبت إليهم من مختلف أنحاء أوربا، وحصار لها دام حوالي ستة أشهر.

كما أن معركة بسطة كانت آخر المعارك الكبرى التي خاضها النصارى ضد المسلمين في الأندلس، فقد تمكنوا بعدها من إخضاع معظم المناطق الأخرى بسهولة حتى سقوط غرناطة الأخير في ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ/كانون الثاني ١٤٩١ م.

عن كتاب دولة الإسلام في الأندلس، عنان، ٨/٥

هوامش البحث

(١) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.

(٢) مدينة أندلسية تعد من أعمال كورة شذونة تبعد عن إشبيلية مرحلتان، ينظر: الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٧٢/٢-٥٧٣؛ ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٥٩.

(٣) قرمونة مدينة أندلسية تقع غربي قرطبة وشرقي إشبيلية، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص٢٢٥.

(٤) طليطلة وهي أحد مدائن الأندلس القديمة وكانت قاعدة مملكة القوط بينها وبين قرطبة مسافة سبعة أيام، ابن غالب، فرحة الأنفس، ص١٩.

(٥) مدينة بالأندلس تعد من أعمال كورة جيان، إذ المسافة بينهما خمسين كيلومتراً، كما أنها تقع بالقرب من مدينة بياسة، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٢٣؛ أبو الفدا، تقويم البلدان، ص ١٦٧.

(٦) بياسة مدينة بالأندلس من أعمال جيان، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ١٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص٩٤؛ الحميري، الروض المعطار، ص ١٢١.

(٧) مدينة أندلسية قديمة، تقع غرب الأندلس، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص٢١؛ الحميري، الروض المعطار، ص٧٥.

(٨) تاريخ الأندلس، ص ٤٥.
(٩) فرحة الأنفس، ص ١٥.
(١٠) المرحلة تساوي مسيرة ٣٧ كم في حالة السير الاعتيادي، ينظر: كراتشوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٩٧٣.
(١١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٩٨/٢.
(١٢) من مدن شرق الأندلس بالقرب من بسطة، ينظر: القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٣.
(١٣) القزويني، آثار البلاد، ص ٥٥٣.
(١٤) مدينة بالأندلس قريبة من غرناطة، لها بابان شقي على النهر، وغربي على خندق، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٦٠٤.
(١٥) الحميري، الروض المعطار، ص ١١٣.
(١٦) الميل يساوي ٢ كم، ينظر: هنتس، المكاييل والأوزان الإسلامية، ص ٩٥.
(١٧) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.
(١٨) نزهة المشتاق، ٢/ ٥٦٨.
(١٩) تقع مدينة لورقة في شرق الأندلس بكورة تدمير، شمالي مدينة المرية، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص٢٥٢؛ الحميري، الروض المعطار، ص٥١٢.
(٢٠) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.
(٢١) وهي أحد مدن شرق الأندلس، ومن مدن كورة تدمير بناها الأمير عبد الرحمن الثاني واتخذها داراً للعمال، الحميري، الروض المعطار، ص٥٣٩.
(٢٢) مدينة أندلسية قديمة تبعد عن البيرة ستة أميال، وتعرف بمدينة اليهود، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص١٤؛ ابن الخراط، اختصار اقتباس الأنوار، ص١٧٤؛ القزويني، آثار البلاد، ص٥٤٧.
(٢٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٣.
(٢٤) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٧/٢.
(٢٥) المسالك والممالك، ٨٩٢/٢.
(٢٦) وهو إقليم بالأندلس متصل بأراضي كورة قبرة، بين القبلة والشرق من قرطبة، إذ أن المسافة بينهما تسعون ميلاً، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٠؛ القزويني، آثار البلاد، ص ٥٠٢.
(٢٧) مدينة بالأندلس تبعد عن غرناطة أربعون ميلاً، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٨.
(٢٨) نزهة المشتاق، ٥٣٧/٢؛ ينظر أيضاً: أرسلان، الحلل السندسية، ٧٥/٢-٧٦.
(٢٩) اختصار اقتباس الأنوار، ص ١٢١.
(٣٠) ابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم، ٤٤٠/٨-٤٤١ (مادة بسط).
(٣١) الفيروزآبادي، القاموس المحيط، ٦٥٩/١؛ الزبيدي، تاج العروس، ١٤٥/١٩ (مادة بسط).

(٣٢) ريحانة الكتاب، ٢٥١/٢؛ معيار الاختيار، ص ١٠٩؛ خطرة الطيف، ص ٣٧.
(٣٣) عنان، الآثار الأندلسية الباقية، ص ٢٣٤.
(٣٤) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٣٥) هناك بعض الاختلاف في تبعيتها في المصادر، فقال الإدريسي إنه من حصون بجانة، نزهة المشتاق، ٥٣٧/٢؛ وقال المراكشي إنها من أعمال المريّة بالأندلس، المعجب، ص١٨٧؛ وذكر الحميري إن برشانة (حصن على مجتمع نهرين وهو من أمنع الحصون مكاناً وأوثقها بنياناً وأكثرها عمارة)، الروض المعطار، ص ٨٨؛ ووردت عند مؤلف مجهول، ذكر بلاد الأندلس (تحقيق مولينا) ص٦١ بلفظ برسانة، وفي تاريخ الأندلس (تحقيق بوباية) ص١١٢ بلفظ بوسانة ؛ وقال ابن حيان إن هذا الحصن بني أيام الأمير عبد الله بن محمد، المقتبس (تحقيق العربي) ص٧٥.
(٣٦) السخاوي، الضوء اللامع، ١٨٩/١١.
(٣٧) المغرب في حلى المغرب، ٨١/٢.
(٣٨) ريحانة الكتاب، ٢٥٤/٢.
(٣٩) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٤٠) التكملة، ١١٨/٢.
(٤١) التكملة، ١٠٤/٢.
(٤٢) ذكر ابن الابار أن تاجلة من عمل المرية، التكملة، ١١٩/٣.
(٤٣) المغرب في حلى المغرب، ٨٤/٢.
(٤٤) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٤٥) ذكر ابن الخطيب قرية شور وقال: يقال لها شون وتقع شمال غرناطة، الإحاطة، ١٢٩/١ ولعل هناك تشابه مع اللفظ أعلاه.
(٤٦) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٤٧) أسماه ابن الخطيب حصن أشكر، ينظر: الإحاطة، ٢٠٨/١؛ الكتيبة الكامنة، ص ٧٧.
(٤٨) نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.
(٤٩) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٠.
(٥٠) كتاب الجغرافية، ص ٩٦.
(٥١) خطرة الطيف، ص ٨٤؛ معيار الاختيار، ص ١١٠.
(٥٢) أسماها الإدريسي طوجالة وقال إنها من إقليم بجانة، ينظر: نزهة المشتاق، ٥٣٧/٢.
(٥٣) التكملة، ٢٠٧/٢؛ ينظر أيضاً: ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٦٩٤/١.
(٥٤) ابن الابار، التكملة، ٩/٤؛ ابن سعيد، المغرب في حلى المغرب، ٨٧/٢؛ ابن عبد الملك المراكشي، الذيل والتكملة، ٤٩٣/٢.

(٥٥) الروض المعطار، ص ١١٣.
(٥٦) نفح الطيب، ٦٦/٤.
(٥٧) آثار البلاد، ص ٥١٢.
(٥٨) الروض المعطار، ص ١١٣؛ ينظر أيضاً: مؤلف مجهول، تاريخ الأندلس، ص ٦٧.
(٥٩) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٦٠) نخبة الدهر، ص ٣٢١.
(٦١) مدينة أندلسية من كورة شذونة، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥١١.
(٦٢) مدينة أندلسية قديمة تقع بين القبلة والغرب من قرطبة، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٥٣.
(٦٣) وهي قاعدة وعاصمة الأندلس لحقبة طويلة تقع على نهر الوادي الكبير، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٦-٢٧؛ الحميري، الروض المعطار، ص ٤٥٦-٤٥٧.
(٦٤) وهي كورة كبيرة في الأندلس تقع بين القبلة والشرق من قرطبة، ينظر: ابن غالب، فرحة الأنفس، ص ٢٥؛ ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ٤٠.
(٦٥) لمزيد من التفاصيل ينظر: مؤلف مجهول، أخبار مجموعة، ص ١٩؛ ابن عذاري، البيان المغرب، ١١/٢؛ ابن الخطيب، الإحاطة، ١٨/١-١٩.
(٦٦) ويسمى أيضاً المحجة العظمى أو السكة العظمى، وهو الطريق الذي يبدأ من قادس وينتهي بأربونة ماراً بقرطبة وإشبيلية وسرقسطة وطركونة، وأشار إليه المقري بقوله: ((وباب ابن عبد الجبار وهو باب طليطلة، وباب رومية وفيه تجتمع الثلاثة الرصف التي تشق دائرة الأرض من جزيرة قادس إلى قرمونة إلى قرطبة إلى سرقسطة إلى طركونة إلى أربونة مارة في الأرض الكبيرة))، نفح الطيب، ٤٦٥/١.
(٦٧) نفح الطيب، ٢٦١/١.
(٦٨) نفح الطيب، ٢٥٩/١؛ ينظر أيضاً: ابن عذاري، البيان المغرب، ٨/٢.
(٦٩) ابن عذاري، البيان المغرب، ٩/٢-١٠؛ المقري، نفح الطيب، ١٢/٣.
(٧٠) الحميري، الروض المعطار، ص ٣٩٤.
(٧١) نبذة العصر ، ص ٣٦-٣٧.
(٧٢) ينظر التفاصيل عن حادثة السيل: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٤١-٤٥.
(٧٣) نبذة العصر، ص ٤٥.
(٧٤) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٨٢/٥؛ الكتاني انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.
(٧٥) الكتاني انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٤٩.

(٧٦) وهي عائشة بنت الأمير محمد الأيسر ابن عم السلطان أبي الحسن علي بن سعد النصري تزوجها سنة ٨٥٧ هـ/١٤٥٣ م وتوفيت في حدود سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١ م، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ١٩٣-١٩٦.

(٧٧) وهي جارية رومية كان اسمها إيزابيلا أخذت أسيرة في إحدى المعارك وألحقت وصيفة بقصر الحمراء فاعتنقت الإسلام وتسمت بثريا وكانت حسناء فتعلق بها السلطان وتزوجها وأولدها اثنين هما سعد ونصر، وبعد سقوط غرناطة لم تغادر الأندلس فقد تنصرت هي وولديها، ينظر: الدرويش، أعلام نساء الأندلس، ص ٩٠-٩١، وذكر إيرفنغ أن اسمها فاطمة ولقبها الزوراء وهي مسيحية بالولادة ابنة القائد سانشو أكزيمنس دي سولي، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٦.

(٧٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٧-٩٨.

(٧٩) المقري، نفح الطيب، ٥١٤/٤؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٢/٥.

(٨٠) كان السلطان أبو الحسن قد وقع مع قشتالة هدنة سنة ٨٨٢ هـ/ ١٤٧٨ م على إجراء التحكيم فيما وقع من كل منهما على أراضي الآخر من عدوان ترتب عليه قتل أو أسر أو حرق سواء في البر أم البحر وأن يدفع السلطان الجزية لقشتالة، ينظر: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ١٩٤/٥-١٩٥.

(٨١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٤-٥٦؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٩

(٨٢) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٥٩-٦٠.

(٨٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٤.

(٨٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٦٥؛ المقري، نفح الطيب، ٥١٥/٤.

(٨٥) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٦؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ١٣٥؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٤/٥-٢٠٥.

(٨٦) المقري، نفح الطيب، ٥١٦/٤؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٨/٥.

(٨٧) نبذة العصر، ص ٧٦.

(٨٨) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٨؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٠٩/٥

(٨٩) ينظر التفاصيل: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٧٩ - ٨٤؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥-٢١٤.

(٩٠) نبذة العصر، ص ٨٤.

(٩١) وهو اسم أبو عبد الله الصغير عند النصارى آنذاك، ينظر: إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٩٥.

(٩٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٤.

(٩٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٥-٢٣٦.

(٩٤) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٦-٨٨.

(٩٥) استقى إيرفنغ معلوماته من مخطوطة المؤلف نصراني معاصر للأحداث يدعى أنطونيو آغابيدا، ينظر: أخبار سقوط غرناطة، ص ٤٩.

(٩٦) أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٣٦.

(٩٧) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٤٤.

(٩٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٠ - ٢٥١.

(٩٩) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٨٨-٩٠؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٣/٥-٢١٤.

(١٠٠) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢١٤/٥.

(١٠١) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ٩٢-٩٤؛ المقري، نفح الطيب، ٥٢٠/٤-٥٢١؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٥٨-٢٧٠.

(١٠٢) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥.

(١٠٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٢.

(١٠٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨ نقلاً عن مخطوطة لآغابيدا.

(١٠٥) حصن كولار، يبدو من خلال وصف إيرفنغ له أنه يقع إلى الشمال من وادي آش.

(١٠٦) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٨-٣٠٩.

(١٠٧) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩ نقلاً عن مخطوطة لآغابيدا.

(١٠٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٩-٣١٠.

(١٠٩) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٢٠٥ عن مخطوطة لآغابيدا.

(١١٠) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥.

(١١١) الإدريسي، نزهة المشتاق، ٥٦٨/٢.

(١١٢) الأندلس من معجم البلدان، ص ١٩٠.

(١١٣) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٥؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥.

(١١٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(١١٥) نبذة العصر، ص ٩٥.

(١١٦) نفح الطيب، ٥٢١/٤.

(١١٧) واضح من النص أنه والي حصن طشكر من قبل أبي عبد الله الزغل.

(١١٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(١١٩) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٣/٥-٢٢٤.

(١٢٠) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(١٢١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١١.

(١٢٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

(١٢٣) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥.
(١٢٤) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.
(١٢٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.
(١٢٦) وهو ميناء يقع على البحر المتوسط بين مالقة والمرية ويبعد عن غرناطة أربعين ميلاً، ينظر: الحميري، الروض المعطار، ص ٥٤٨-٥٤٩.
(١٢٧) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٤/٥.
(١٢٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٤.
(١٢٩) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥.
(١٣٠) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٥ - ٣١٦.
(١٣١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٧-٣١٩.
(١٣٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٩-٣٢٠.
(١٣٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢٢.
(١٣٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢ نقلاً عن آغابيدا.
(١٣٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٢.
(١٣٦) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٣-٣٢٥.
(١٣٧) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧.
(١٣٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٢٧-٣٢٨.
(١٣٩) وهو أحد سلاطين المماليك الشراكسة حكم مصر للمدة (٨٧٣-٩٠١ هـ/١٤٦٨-١٤٩٥ م)، ينظر: السيوطي، حسن المحاضرة، ١٢٢/٢.
(١٤٠) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢١/٥.
(١٤١) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٠ عن مخطوطة آغابيدا.
(١٤٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣١ عن آغابيدا.
(١٤٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢ عن آغابيدا.
(١٤٤) وصف إيرفنغ ما حصل لأطفال ونساء مالقة عندما دخلها ملكي قشتالة بقوله: (وقد حيل في كثير من الأحيان بين الأم وطفلها، كما تتفرق الأرواح عن أبدانها، أو اغتصبت طفلة أمام ناظر أبويها في زوايا الشوارع المعتمة للقصبة، وهكذا مزقت عائلات عن بعضها لكي لا تجتمع ثانية مدى الدهر، والأبناء عن آبائهم، والنساء عن أزواجهم، والأمهات عن أطفالهم، وحزنهم وألمهم هو مجال سخرية أعدائهم، النصارى، دافعهم لهم كي يعتدوا عليهم أكثر، من منطق أن الخضوع يزيد من شراسة الغالب)، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٠٠.

(١٤٥) الحلس الكبير من الناس الذي لا يبرح مكانه وهو ذم لأنه لا يصلح إلا للزوم البيت، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ٥٤٦/١٥ (مادة حلس).

(١٤٦) الملس قيل الخصي، وقيل الذي بيع الشيء ولا يضمن عهدته، وقيل الملس من الإفلات، وقيل الملس هو اللين الشديد، وهي كلها صفة ذم، ينظر: الزبيدي، تاج العروس، ٥١٥/١٦-٥٢١ (مادة ملس).

(١٤٧) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٢-٣٣٣.

(١٤٨) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٢/٥.

(١٤٩) حكم السلطان بايزيد الثاني الدولة العثمانية للمدة (٨٨٦-٩١٢ هـ/ ١٤٨١-١٥٠٦ م)، ينظر: فريد بك، تاريخ الدولة العلية العثمانية، ص ١٧٩-١٨٧.

(١٥٠) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٢/٥.

(١٥١) قادة فتح الأندلس، ٢٣١/٢.

(١٥٢) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٦.

(١٥٣) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٣٧-٣٣٨.

(١٥٤) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

(١٥٥) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠.

(١٥٦) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٠-٣٤١.

(١٥٧) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

(١٥٨) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

(١٥٩) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٢.

(١٦٠) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.

(١٦١) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣.

(١٦٢) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٣-٣٤٤.

(١٦٣) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٧.

(١٦٤) وهو محمد بن حسان من وجوه مدينة بسطة وأحد القادة الذين شاركوا في الدفاع عنها، ينظر: إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣١٣.

(١٦٥) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨؛ ينظر أيضاً: عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٦/٥.

(١٦٦) مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ٩٧؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢٢٦؛ الكتاني، انبعاث الإسلام في الأندلس، ص ٥٣؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٣٥/٢.

(١٦٧) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.

(١٦٨) نبذة العصر، ص ٩٦-٩٨.

(١٦٩) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٨.
(١٧٠) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.
(١٧١) دلاية بلد بالأندلس قرب المكرية، ينظر: ياقوت، الأندلس من معجم البلدان، ص ١٢٢.
(١٧٢) دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٥/٥-٢٢٦؛ ينظر أيضاً: خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٣٦/٢.
(١٧٣) مؤلف مجهول، ص ٩٨.
(١٧٤) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٤٩.
(١٧٥) أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.
(١٧٦) إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٠.
(١٧٧) أخبار سقوط غرناطة، ٣٥٠.
(١٧٨) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٧/٥.
(١٧٩) مؤلف مجهول، ص ٩٩-١٠٠.
(١٨٠) عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٣٠/٥؛ خطاب، قادة فتح الأندلس، ٢٤٠/٢.
(١٨١) ينظر التفاصيل عن سقوط غرناطة: مؤلف مجهول، نبذة العصر، ص ١٢٠-١٢٨؛ إيرفنغ، أخبار سقوط غرناطة، ص ٣٥٤ وما بعدها؛ السلاوي، الاستقصا، ١٠٣/٤-١٠٦؛ عنان، دولة الإسلام في الأندلس، ٢٢٩/٥-٢٦٤.

قائمة المصادر والمراجع

أولاً: المصادر

- ابن الأبار، أبو عبد الله محمد بن عبد الله (ت ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م)

١- التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، بيروت، ١٩٩٥م
- الإدريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الحميري الحسني (ت ٥٦٠هـ/ ١١٦٤م).
٢- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩م.
- البكري، أبو عبد الله بن عبد العزيز (ت ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م)
٣ - المسالك والممالك، منشورات دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٢م.
- الحميري، أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد المنعم (ت: حوالي ٧١٠هـ/١٣١٠م)
٤- الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، ط٢، بيروت، ١٩٨٠م.
- ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف (ت ٤٦٩هـ/١٠٧٦م)

٥- المقتبس (للحقبة ٢٧٥-٣٠٠هـ/ ٨٨٨-٩١٢م)، تحقيق إسماعيل العربي، ط١، منشورات دار الآفاق الجديدة، المغرب، ١٩٩٠م.

ابن الخراط، أبو محمد (ت ٥٨١هـ/ ١١٨٥م)

٦- اختصار اقتباس الأنوار، تقديم و تحقيق ايميليومولينا و خافينتو بوسيك بيلا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية، معهد التعاون العربي، مدريد ١٩٩٠م.

- ابن الخطيب، لسان الدين أبو عبد الله محمد التلمساني(ت ٧٧٦هـ/١٣٧٤م).

٧- الإحاطة في أخبار غرناطة، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤هـ.

٨- الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، عني بتصحيحه السيد البشير الفورتي، ط١، مطبعة التقدم الإسلامية، تونس، بدون تاريخ.

٩- خطرة الطيف في رحلات في المغرب والأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، بيروت، ٢٠٠٣ م.

١٠- ريحانة الكتاب ونجعة المنتاب، تحقيق محمد عبد الله عنان، ط١، بيروت، ١٩٨٠م.

١١- الكتيبة الكامنة في من لقيناه بالأندلس من شعراء المائة الثامنة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت ١٩٦٣ م.

١٢ - معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ١٤٢٣ هـ.

- الزبيدي، حمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني (ت ١٢٠٥ هـ/١٧٩٠ م)

١٣- تاج العروس من جواهر القاموس، مجموعة من المحققين، دار الهداية، بيروت.

- الزهري، أبو عبد الله محمد بن أبي بكر (ت بعد ٥٤١هـ/ ١١٥٤م)

١٤- كتاب الجغرافية، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد.

- السخاوي، شمس الدين محمد بن عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩٠٢ هـ/١٤٩٦ م)

١٥- الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، مكتبة دار الحياة، بيروت.

- ابن سعيد، علي بن موسى (ت ٦٧٣هـ/ ١٢٧٤م أو ٦٨٥هـ/١٢٨٦م)

١٦- المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ج٢، ١٩٥٥م.

- ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل (ت ٤٥٨هـ/ ١٠٦٦ م)

١٧- المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٠ م.

١٨- المخصص، تحقيق خليل إبراهيم جفال، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٦ م.

- السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر (ت ٩١١ هـ/١٥٠٥ م)

١٩- حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مصر، ١٩٦٧ م.

- شيخ الربوة، أبو عبد الله محمد بن أبي طالب الأنصاري (ت٧٢٧هـ / ١٣٢٦م)

٢٠- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، دار إحياء التراث العربي، بيروت، الطبعة الثانية ١٩٩٨م.

- ابن عبد الملك المراكشي، أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك (ت٧٠٣هـ/ ١٣٠٣م)
٢١- الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، السفر الخامس، تحقيق إحسان عباس، بيروت ١٩٦٥م.
- ابن عذاري المراكشي، أبو العباس أحمد بن محمد (ت بعد ٧١٢هـ/ ١٣١٢م)
٢٢- البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة جـ.س كولان وإ-ليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥١م.
- العذري، أحمد بن عمر بن أنس (ت ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م)
٢٣- نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، د.ت.
ابن غالب، محمد بن أيوب بن غالب البلنسي (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٥م)
٢٤- قطعة من كتاب فرحة الأنفس عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة، تحقيق لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة ١٩٥٦م.
أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر (ت ٧٣٢هـ/ ١٣٣١م)
٢٥- تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، ١٨٤٠م.
- الفيروزآبادي، أبو طاهر محمد بن يعقوب الشيرازي (ت ٨١٧ هـ/ ١٤١٥ م)
٢٦- القاموس المحيط، مؤسسة الرسالة، ط ٨، بيروت، ٢٠٠٥ م.
- القزويني، زكريا بن محمد بن محمود (ت٦٨٢هـ/ ١٢٨٣م).
٢٧- آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، ١٩٦٩م.
- مجهول، مؤلف (ت القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي).
٢٨١- أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم، مجريط، ١٨٦٧م.
- مجهول، مؤلف (ت في حدود ٨٩٥هـ/١٤٨٩م).
٢٩ - تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٧م، والنسخة الأخرى بتحقيق لويس مولينا، بعنوان ذكر بلاد الأندلس، مدريد، ١٩٨٣م.
- مؤلف مجهول (معاصر لسقوط غرناطة سنة ٨٩٧ هـ/١٤٩١ م)
٣٠- نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر، تحقيق محمد رضوان الداية، دمشق، ١٤٠٤ هـ.
- المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت ٦٤٧هـ/١٢٤٩م)
٣١- المعجب في تلخيص أخبار المُغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥م.
- المقري ، شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني (ت: ١٠٤١هـ / ١٦٣١م).

٣٢- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق إحسان عباس ، دار صادر ، بيروت ، ١٩٦٨م.

- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله بن عبد الله الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م)

٣٣- الأندلس من معجم البلدان، حققه وعلق عليه جاسم ياسين الدرويش، ط١، البصرة ٢٠١٢م.

ثانياً: المراجع الحديثة

- أرسلان، شكيب

١- الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، ط١، المطبعة الرحمانية، مصر، ١٩٣٦م.

- إيرفنغ، واشنطن

٢- أخبار سقوط غرناطة، ترجمة هادي يحيى نصري، مؤسسة الانتشار العربي، ط١، بيروت، ٢٠٠٢م

- خطاب، محمود شيت

٣- قادة فتح الأندلس، مؤسسة علوم القرآن، بيروت، ٢٠٠٣ م.

- الدرويش، جاسم ياسين

٤- أعلام نساء الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١٧م.

- السلاوي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن خالد الناصري

٥- الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، دار الكتاب، الدار البيضاء، بدون تاريخ.

- عنان، محمد عبد الله

٦- الآثار الأندلسية الباقية في اسبانيا والبرتغال دراسة تاريخية أثرية، ط٢، القاهرة، ١٩٩٧م.

٧- دولة الإسلام في الأندلس، مكتبة الخانجي، القاهرة، جـ١، ٢، ٥/ الرابعة، ١٤١٧ هـ - ١٩٩٧ م، جـ٣، ٤، ط ٢، ١٤١١ هـ - ١٩٩٠ م.

- فريد بك، محمد

٨- تاريخ الدولة العلية العثمانية، تحقيق إحسان حقي، بيروت، ١٩٨١ م.

- الكتاني، علي بن محمد المنتصر

٩- انبعاث الإسلام في الأندلس، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥ م.

- كراتشوفسكي، أغناطيوس يوليانوفتش

١٠- تاريخ الأدب الجغرافي العربي، نقله إلى العربية صلاح الدين عثمان هاشم، القاهرة، ١٩٦٣م.

هنتس، فالتر

١١- المكاييل والأوزان الإسلامية وما يعادلها في النظام المتري، ترجمه عن الألمانية كامل العسلي، عمّان ١٩٧٠م.